عِنْدَمَا يُزْهِرُ الْبُرْتُقَالُ

الكتاب: عندما يزهر البرتقال

الكاتب: الأسير عمار الزبن

الطبعة الأولى - ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: مؤسسة فلسطين للثقافة

سورية - دمشق - ص. ب: ١٣٠٢٩

هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢

فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١

البريد الإلكتروني: thaqafa@thaqafa.org

موقع المؤسسة على الإنترنت:

www.thaqafa.org

تصميم الغلاف والإخراج:

م. جمال الأبطح

عِنْدَمَا يُزْهِرُ البُرْتُقَالُ

الأسير عمّار الزبن

رواية

محاولة روائية لقراءة أحـداث تجري في عقول وأفئدة البرتقال الصامد في أرضنا المحتلة عام ثمانية وأربعين، حيث النوّار الذي بدأ يزهر رغم العواصف والرياح العاتية والقادمة من بعيد.

الإهداء

إلى أهلنا الصامدين على تراب أرضنا المحتلة
عام ثمانية وأربعين

إلى شواطئ حيفا ويافا وتل الربيع وقيسارية
التي لا تزال تعاند الغرباء

إلى أزهار البرتقال التي عادت تزهر من جديد

إلى المثلث والنقب والجليل

إلى شهداء انتفاضة الأقصى «الثلاثة عشر» وإلى من ينتظر!!

أهدي هذا العمل

الأسير عمار الزبن

سجن نفحة، صحراء النقب - فلسطين

٢٠٠٧/١٢/٢

طرقت أم حسام الباب بصورة سريعة وكأنها تستعجل ابنها لأمر هام قائلة:

حسام، حسام، افرح يا ولدي واستقبِل ضيوفَ أبيك في المضافة، لقد ازدحم المكان بالناس وأنت لا زلت في غرفتك.

فرد عليها حسام بصوت يكتنفه الحزن المجبول بالغضب، وهو يفتح باب الغرفة:

وهل تسمِّينهم ضيوفًا يا أمي وأنت تعرفين من يكونون؟!

صمتت الأم هنيهة وكأن صفعةً عمرُها ستون عاماً قد سقطت على وجهها بقوة، وسرعان ما ردت عليه:

دعك من هذا يا ولدي واخرج لاستقبال مَن رضي أبوك أن يكونوا ضيوفه ولو كانوا أكثر مما نعرف، فاعتصامك في الغرفة لن يغير من الحقيقة شيئا بل سيضع والدك في حرج كبير.

فرد حسام وقد تَمَعَّر وجهه غضبا:

هل كان أبي مضطرا أن يضع نفسه في هذا المكان ويسجنا معه، صاغرين - إلى هذا المربع؟!

فصرخت الأم في وجهه قائلة:

أستحلفك بالله أن تصمت وتؤجل الحديث إلى ما بعد الزيارة، وأن لا تجعلني ضحية خلافك مع أبيك على أشيائه السياسية.

ترقرق الدمع في عينَيْ أمِّ حسام، خافية وراء ذلك خوفا من غضب الزوج، فتدخَّل حسام بقبلة على رأس والدته، أراحت عنها ثقل المهمة قائلا:

والله لولا هذه الدموع الغالية والقلب الذي يسكن في صدرك، هذا الصدر الذي أرضعني عكس ما يفعل والدي، لَمَا تحركْتُ من هذه الغرفة، بل لَمَا بقيتُ في هذا البيت لحظةً واحدة، أتجرعُ السُّمَّ الذي يسقينا إيَّاه والدي، فيجري في الجسد كالسيف يقطع كل جميل في الذاكرة!!

خرجت أم حسام تاركة وراءها غضباً، عجزت عن تقدير عواقبه، لكنها أخذت من ولدها وعْداً بالخروج لاستقبال الضيوف الذين تمقتهم أكثر من ولدها، لكنها محكومة لطاعة الزوج القاسية والجشع، الذي يلبس ثوب السياسي الساعي لخدمة أبناء بلده والحصول على حقوقهم من بيت السارق!!

وقف حسام أمام المرأة، ينظر عبرها إلى وسادته، وكأنه يخجل من النظر إلى وجهه، فيصرف نظره إلى أي شيء حتى الوسادة، وفي لحظة خاطفة ركض نحو السرير، ومد يده تحت الوسادة، مخرجا حذاء رضيعة صغيرة، مهشم الجوانب مهترئ الأطراف، وقد كسته الأتربة والغبار، وفي

مشهد هستيري: أخذ يُقَبِّلُه، يحضنه، يضعه على رأسه ويردد:

لا عشت إن عاشوا يا حياة، لا عشت إن عاشوا يا حياة!! وغط في ندبة بكاء عميق قبل أن يضع الحذاء في جيب سترته الداخلية ويخرج.

كانت البلدة الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط في فلسطين المحتلة عام ٤٨، تعيش قمة التناقض في ذلك اليوم، حيث الضيوف النكدون الذين حلُّوا على أبي حسام، إحدى الشخصيات الهامة في البلدة، وأثر تلك الزيارة على شرائح المجتمع الصغير داخل البلد، بدءا من بيت أبي حسام وانتهاء ببيت أسيل.

صاغت أم أسيل كلماتها بالدموع، تطلب منطقا إنسانيا لما يحدث في البلدة، وقد تربعت في قاع الدار الذي طالما احتضنت جنباته ضحكات أسيل، وهي تطوي بذراعيها صورة حبيبها أسيل الذي اقتطفته الأيدي التي تصافح أبا حسام في مجلس الضيافة قائلة:

أفيقوني، قولوا لي إني نائمة، لا تدعوني أغرق في الأحلام السيئة، قاتل ولدي حبيبي، يجلس هناك على بعد أمتار من كومة التراب التي اختلطت بدم أسيل يا ويلي، يا ناري التي تحرق في الصدر.

تدخلت على الفور جدة أسيل العجوز التي كانت تتكئ على عكازها الخشبي:

وماذا ترجين من هذا الذي باع النخوة والكرامة وهان عليه حتى سمعة والده الشهيد الذي مات وهو يدافع عن «قيسارية» يوم النكبة، هوني عليك

يا ابنتي وتجملي بالصبر.

لكن كلام الجدة لم يرق للفتى الذكي رائد، الذي ينام كل ليلة على ذكرى شقيقه الشهيد محتضنا تلك الرصاصة التي اخترقت صدره واستطاع الأطباء إخراجها، مخاطبا إياها بالقاتلة قائلا: لماذا أيتها القاتلة؟! لماذا أسيل وليس أنا؟!

حيث تدخل بعنف البواسل معقبا على كلام جدته:

ولماذا نرضى حماقات أبي حسام الذي باع دماء أسيل وإخوانه الثلاثة عشر، وكيف نقبل بدخول القاتل إلى بلدتنا دون أن نفعل شيئا؟! الآن فهمت معنى الصمت الذي كان يميز أسيل، حيث كان يفضل الصمت على كلام العاجزين هذا، وعندما حانت ساعة القول، انتفض بحجارته.

أجهشت الأم بالبكاء وأخذت العبرات ترسم صورة قديمة جديدة، فهي ترى حبيبها أسيل في حماسة رائد، الذي بعثت أنفاسه روح أسيل، وأدارت في رأسها شريط الذكريات الأخيرة التي خطها أسيل بضحكاته وتصرفاته، حيث ذهبت إلى ذلك اليوم الأخير:

ها، ماذا تقولين يا أم أسيل في شكل ولدك المحترم؟!

ردت عليه بثغرها الباسم: قمر في سماء صافية، عقمت النساء عن ولادة مثله، فصاح أسيل بأعلى صوته.

الله. الله. يا متنبية النساء، إن كنتُ قمرا، فأنتِ ذاك الضوء الذي يشع من وسطه فيسميه النساء نورا أو سميه أنت يا أماه.

فمدت ذراعيها تزامنا مع قطرات دمع سالت على وجنتيها قائلة:

- تعال إلى صدري أيها الشقيُّ الجميل، لقد شرِبْتَ الجَمال حتى أصبح دُرَرًا تجري على لسانك.

فرد أسيل وهو يختنق بين ذراعيها:

- لقد علمتِني الشعر يا أمِّي لكنك لم تعلميني خَنْقَ المحبين.

فضحكت أمه بصوت عال وهي تعضه من وجنته المتوردة قائلة:

- ودِدْتُ لو أزرعك مجددا جنينا في أحشائي ولا أخرجك أبدا، فلا ينعم غريب بنعمة النظر إليك فضلا عن مسِّكَ بيده.

فصاح أسيل مرة أخرى:

- فماذا أبقيت للحسان يا أمي، اللواتي يخطبن وُدَّ حبيبك الجنين؟

أظن أن الحسناء التي سآوي إلى عشِّها مستقبلا، ستقتص مني على هذه العضَة يا أمي، عندها لن تقنع بأن أم زوجها قد فعلت ذلك!!.

عادت أم أسيل من سَرَحانها في ماضي حبيبها، على تحية أبي أسيل الذي يعمل في جامعة حيفا، حيث بدا على وجهه ما ألمَّ بالحاضرين وسرعان ما قال:

هونوا عليكم يا جماعة، فالأمر أكبر من أن نختصره في مجرم يقف على رأس وزارة مجرمة، كانت مسؤولة عن استشهاد أسيل وإخوانه الثلاثة عشر، والآن يزور بلدتنا قالها، أبو أسيل وهو يحدق بصورةٍ توسطت الحائط داخل غرفة الضيوف، أمكنه رؤيتها من قاع الدار، حيث

الأقمار الثلاثة عشر يتوسطهم أسيل:

إنها دولة مجرمة - قال - تبرِّئ القاتل وتجرِّم البريء في الوقت ذاته، انظروا إلى محاكمهم التي تدَّعي النَزاهة والاستقلال، تقضي بعدم مسؤولية الجنود والقناصة عن قتل الشباب، وفي الوقت ذاته تحملنا مسؤولية المظاهرات التي أدَّت إلى هذه النتيجة، يساوون ما بين الحجر الذي يرميه الشاب من مسافة بعيدة، فلا يصل في غالب الأحيان - وإن وصل لا يفعل شيئا - وما بين الرصاصة التي يرميها القنَّاص على هدفه وتصورها عدسات التلفزة، ويسمون ذلك دفاعا عن النفس. لا تحزنوا يا جماعة، فهذا عصر الغطرسة، الذي يقول بمنطق القوة وليس بقوة المنطق، ولا بد أن تختل موازين القوى يوما فتنعكس الصورة.

- عندها، صرخ رائد الذي بدا كالصاعق الموشك على الانفجار:

وهل سنسكت يا أبي؟! أرأيت الأطفال في نابلس وجنين وهم يعتلون ظهور الدبابات؟ لقد داسوا على خوفنا وجبننا ولم يبق لنا عذر، وها نحن نكتفي بالكلام.

- رد عليه أبوه بغضب منضبط، طالبا منه الهدوء قائلا: اهدأ يا ولد، فحتى يصبح الناس كما تريد فإنَّ أمامنا الكثير الكثير لنعمله، وأولها أن لا يكون بيننا من ينتمي إلى حزب صهيوني - كأبي حسام - وإن كانت دوافعه ملائكية.

- فتبسّم رائد متهكما على منطق أبيه الذي رأى فيه أحلام النائمين،في

الوقت الذي كان الغضب يشتعل في رأس وصدر أبي أسيل الذي زاده كلام ابنه الصحيح عمقا في التفكير بمصيبة الواقع السيء، أن تعيش على أرضك في ظل كيان غريب فرض عليك إيقاع الحياة ومفرداتها، حتى أصبحت لا تقوى على منع قاتل من دخول بلدتك.

كان التوتر بادياً على وجوه الناس جميعاً، حتى البيوت العتيقة والشوارع التي طالما ابتسمت لزوارها وأهلها، كانت تعكس ما يختلج في صدور الأهالي، حيث الوجوم الذي ارتسمه على وجوه النسوة اللواتي يعتلين الأسطح ويتبادلن الحذق على هذا الواقع، وتأوهات الرجال الذين كانوا يجلسون في القهوة وينفخون دخان النارجيلة في السماء مصحوبة بشرَرٍ يتطاير من العيون، راسماً لوحة سوداء كُتب عليها: نحن غاضبون.

- في تلك اللحظات:

مرَّ الأستاذ أحمد في الشارع يركب على عربة مجرورة بحمار، فألقى التحية على الجالسين، واستمرَّ في سيره باتجاه حقله، وهو يبتسم في وجوه الجالسين والمارة.

حيث الوقت الذي يذهب فيه الفلاحون إلى حقولهم عصرا بعد فترة الصلاة، أما الأستاذ أحمد فيعتمد صباحاً على عامل من البلدة، ويأتي

دوره بعد الانتهاء من الدوام من مدرسة البلدة الثانوية وتناول الطعام في البيت. وبينما عربة الأستاذ تسير على وقع قيادته وأوامره للحمار بأن يحث الخطى: اعترض طريقه المعتاد باتجاه السهل، حاجز أمن يتبع لقوات الحماية المرافقة لحضرة الزائر الكبير حيث يقع الحاجز بالقرب من مضافة أبي حسام، مما أعاق مرور العربة وأخضعها للتفتيش، ولا زال الأستاذ يبتسم، مما أثار فضول الضابط الجهم الذي سأل الأستاذ عن سبب ابتسامه، فأجاب:

وهل تكون سعيدا إذا رأيتني مُقَطَّبَ الجبين عبوسَ الوجهِ؟

فردَّ الضابط بشيء من العنجهية.

أراك عصري المزاج تسوق الكلام بفلسفة لا تليق بفلاح، ليس له حظ من الحياة سوى الغبار والخضار وقيادةٍ جيِّدة لحضرة الحمار.

فقهقه الأستاذ بصوت مرتفع وقال:

أترضى العصرية بثوب فلاح إذا أزاحت عن وجهك القبح والعبوس الذي يعبر عن لاشيء سوى جهل في قيمة الأرض والإنسان وحتى الحيوان؟!

- فاستشاط الضابط غضبا وأمره بالرجوع من حيث أتى، وبينما كان يأمر الأستاذ بذلك: مرَّ حسام من المكان، وألقى تحية على أستاذه وسأله: ما الذي يعيقك يا أستاذ أحمد؟! ألم تتأخر عن حقلك؟!

فأجابه الأستاذ:

يبدو أن ضيوف والدك كبار جدا، أكبر من حماري والعربة وحقلي

الذي ينتظر، مما يدفع الحراس إلى إرجاعي كما ترى.

- ارتسمت ابتسامة صغيرة جدا على ثغر حسام الذي كان يحب أستاذه كثيراً فمنذ عامين كان يتعلم على يديه قبل دخوله الجامعة، وعلى الفور، طلب حسام من الضابط الذي سبق وأن عرف هوية حسام، أن يفتح الحاجز أمام العربة ولا يعترض طريق الفلاحين وإلا أبلغ أباه بذلك، فانصاع الضابط لذلك مرغما.

وفي أثناء مغادرة الأستاذ للمكان، التقى بَريقُ عينَي الأستاذ بعينَيْ حسام، فتسمَّر الأخير في مكانه مخاطباً طيف الأستاذ الذي مضى بعربته:

والله ما نسيت يا أستاذ ولا غابت عن ناظري لحظة واحدة، ولا زلت أزرع أحجارها فوق قلبي، وأحضن ترابها في صدري، أنام على صوت الأمواج تغازل النجوم كل ليلة، وفي الصباح تلطم جدار الدار معلنة عن يوم جديد.

ما نسيتُ قيسارية ووجهها الذي رسمته بيدك على وجهي، فتنفس عميقاً عميقاً حتى ما وراء العظم، ما نسيت الذئاب التي افترست يأسها الجميل وتجلس في مضافتنا الآن.

ما نسيت يا أستاذ ولكن؟!

- كان الأستاذ يدرك حقيقة تلميذه من الداخل، لكنه يشك في قدرته على فعل شيء يصحح هذا الواقع السيء، وبينما الأستاذ أحمد يقود

عربته، كان يخاطب حماره الذي يقتنيه منذ عشر سنين، فالأستاذ مشهور بالغرابة بعض الشيء:

أتعلم يا حمار، أن العقل لم يعد ميزة لدى البعض من جنسنا، يمتاز به عن جنسكم؟!

- فنهق الحمار مستنكرا بصوت عال على واقع نداء الأمعاء الذي خرج من مؤخرته.

- فرد الأستاذ بسرعة:

على مهلك يا صديقي، فلن يزاحمك أحد على صحبتي حتى تموت، فحمير جنسنا قد أبدلوا الرأس فقط وبقيت أجسادهم كما هي، فالأيدي الآدمية في حالهم، تستقبل الغرباء في المضافات وتجمع الأصوات في الانتخابات، وتصافح أيادٍ حمراء، لونها دماء جنسنا الذي بقي على حاله!! وهذه طبيعة عملهم الجديد فلا تقلق.

- وفجأة، رنم الحمار زفراته الشهيرة من شفتيه وأطلق العنان لرباعيته، فابتسم الأستاذ كعادته ومضى على وقع ذلك.

كان الحضور من أهل البلدة والبلدات المجاورة قد جاءوا قبيل مجيء الضيوف المهمين وتجمعوا في المضافة التي تلتصق ببيت أبي حسام،

حيث يرتبط مطبخ المضافة بممر صغير يؤدي إلى البيت، وعادة ما يوفر المطبخ احتياجات الضيوف عملا بالعادات والأعراف العربية التي تكرم الضيف مهما كان لونه أو جنسه، كان الحضور أعضاءً في حزب الضيف والعادة كانت أن يجتمع الأعضاء اجتماعات متكررة في الدعاية الانتخابية للمرشحين لقيادة الحزب في كل دورة انتخابية حيث يستمعون إلى خطابات المرشحين وتجري نقاشات يتخللها بعض الحدة في كثير من الأحيان، ولخصوصية المكان والأعضاء، فإن الحضور قد خضعوا للتفتيش قبل الدخول، وكانت المرة الأولى بعد استشهاد أسيل التي يأتي فيها زائر بحجم هذا الضيف الذي كان جنرالا في الجيش الإسرائيلي وشغل منصب وزيرٍ للأمن الداخلي في الحكومة التي قادها حزبه الصهيوني وجرى في عهدها قتل ثلاثة عشر فلسطينيا من أبناء ٤٨ على إثر اقتحام شارون للمسجد الأقصى المبارك، وكان من بينهم ابن البلدة أسيل.

كانت سعاد تهُمُّ بقطع الشارع الذي ينتصف البلدة، وقد أعيَتْه كثرة الحفر في الطريق وشبكة المياه المهترئة التي تشكو قلة الصيانة بسبب شح الميزانية في البلدية، فسمعت صوتا ناعما ينادي عليها من الخلف:

سعاد، سعاد

فالتفتت للوراء بسرعة فإذا بها صديقةُ عمرِها إيناس:

إيناس، كيف حالك أيتها الشريرة،لقد اشتقت إليك كثيرا؟!

فردت عليها بعد أن تعانقتا:

الشوق يا ابنة الأكرمين، ليس كلمة تقنعي بها الوفاء للصحبة!

وأسَرَني زوجي في قلبه والبيت، لم تعودي تسألين يا مجرمة.

ابتسمت سعاد وقالت:

القطة أيتها الشريرة، مهما أبعدوها عن بيتها وأهلها، تعود في النهاية إلى مكانها، وأنا قطتك التي لولا وجودها في الشارع الآن، لخربشت وجهك الجميل.

فضحكت إيناس وقطعت الشارع مع سعاد بعد أن رفعتا ثوبيهما خوفا من مياه الصرف الشاردة وسألت عن وجهتها، فقالت سعاد:

أنا ذاهبة لبيت الخالة أم أسيل حتى أقف إلى جانبها في هذا اليوم الحزين الذي أراه أسود بوجود هذا الزائر اللعين في مضافة أبي حسام، فما رأيك بالمجيء؟!

ردت إيناس قائلة:

الآن تأكدت بأنك مشتاقة لي، لأنني كنت ذاهبة إلى المكان نفسه، فهذه سعاد التي أعرفها، وقد ظننت للحظة أن حبيب القلب قد جرفك إلى مربعه!!

هزت سعاد رأسها آسفة على سوء الظن هذا وردت!

نعم جرفني إلى مربعه، لكنه ليس المربع الذي تتصورين، بل مربع قلبه وصدقه وإخلاصه لدينه ووطنه وأهله، فحسام كما يعتقد والدي الذي رباه – وقد امتحنت ذلك بنفسي – نبتٌ صالحٌ لأرض طيبة اسمها أم حسام، غير أن الباذر سقيم!!.

- علقت إيناس قائلة:

لقد تحقق لدي الآن أن حسام قد أعماك عن رؤية الصورة بكافة زواياها، انظري إلى حسامك المصون، أين هو الآن؟ إنه يخدم ضيوف أبيه في المضافة يسقيهم دماء أسيل، وأين حماتك أم حسام؟ إنها تلقم أفواه القتلة من خيرات بلدتنا التي جبل ترابها بدماء أسيل وإخوانه، وهي التي فقدت شقيقها في حرب لبنان الأولى!!.

ردت سعاد بحزن وشغف لتبيان الحقيقة:

ليس الأمر كذلك يا إيناس، صحيح أن حسام يقف الآن بالمضافة، لكنه مرغم على ذلك حفاظا على أمه وإخوانه من غضبة والده الذي أقسم عليه أن يطلق أمه حال إساءته لضيوفه أو عدم حضوره، أما المسكينة «أم حسام» التي تعاني مرض الضغط والسكري وتربي عشرة أبناء صغار، فليست مستعدة لتشريد أبنائها، حتى أنها أقنعت زوجها – كما تعرفين – كي يحضر لها خادمة فلبينية، تساعدها في أمور البيت وقد حضرت قبل عدة أشهر، حتى لا يتهمها بالعجز.

- بدت إيناس مشروهة الحديث وعلقت باستغراب:

لكنّ لا أحد يعرف ذلك يا سعاد، وكيف لنا أن نعرف ما يدور داخل البيت، لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد أوقعتِني في هم يفوق الهم الذي كنتُ فيه، لكنني مع ذلك أشك في أن حسام يكذب عليك حتى يبرر أفعال والده وفي ذات الوقت يحظى بك.

ردت سعاد فورا:

لا، لا يا صديقتي، ففضلا عن قناعة والدي الذي علَّمه مرحلة ثانوية وتربطه به علاقة قوية، فإني ما خبرت عنه الكذب، وها نحن معا في كلية واحدة في جامعة حيفا ألا تستطيعين معرفة معادن الناس فيها منذ عامين؟، حيث تكتشفين حساما آخر غير الذي يوجد في المضافة مرغما.

- فطلبت إيناس أن تحدثها عنه حتى يرتاح قلبها وتطمئن على مستقبل صديقتها الذي ربطته معه، لكنهما اقتربتا من منزل أم أسيل، فأجَّلَتا الحديث لفرصة أخرى.

سعدت أم أسيل بزيارة سعاد وإيناس تماما كما فعلت قبلهن الكثيرات، وتصادف وجود أبي أسيل في البيت حيث رحب بهما أيضا سائلا سعاد بشيء من المداعبة:

ما هي أخبار الأستاذ أحمد فلاح القرية المثقف، وهل لازال يكتب

الشعر في حماره؟!

– ضحك الجميع على سؤال أبي أسيل الذي تعودت عليه سعاد،حيث أجابت:

أبي عِمْلة نادرة،لا يرى الثقافة في الكتب وحسب، بل ينزلها على أرض الواقع حتى يصبح حقيقة، فالفِلاحة ليست مصدرا للرزق وحسب، بل تواصلاً ثقافياً وحضارياً مع التراب، أما الحمار فهو الشيء الذي لا يمكن لأحد أن يلومه عليه إن استخدمه للتشبيه في شعره.

- علق أبو أسيل قائلا :

مهلا، مهلا يا بنت صديقي الذي أنجب هذا اللسان، فلقد تركنا الدوام في الجامعة قبل ساعات، فأجِّلي درس التراب لمحاضرة الغد، فأنا أعرف أننا لن نغلبك في الحديث، ومن يشابه أباه فما ظلم.

- ابتسم الجميع على الرغم من الغَصَّة التي بدت على الوجوه.

- سألت إيناس عن رائد الذي لا يبدو في البيت، فأجابت أم أسيل:

- أخشى أن يرتكب عملا مع أصدقائه، يفضي إلى إصابته بمكروه، فما عدنا نسيطر على الأولاد الذين يكبرون أضعاف أعمارهم وهم يشاهدون قتلة إخوانهم أمام أعينهم.

- بادرت الجدة التي كانت تجلس هذه المرة وبيدها مسبحة طويلة، بالقول:

توكلي على الله يا ابنتي، فلن يصيبه شر إن شاء الله، فلا بد أنه في

المسجد أو في نادي البلدة أو لعله عند أحد أصدقائه، فاطردي الوساوس من رأسك.

- تدخلت سعاد قائلة:

أو ربما ذهب إلى تجمع الشباب وسط البلدة، فقد رأيت مجموعة كبيرة منهم تحمل لافتات تندد بزيارة هذا اللعين إلى البلدة وتحمل صور الشهداء.

- بدت ملامح الرضى على وجوه الحاضرين لدى سماعهم هذا الخبر حيث غادروا جميعا لذاك التجمع الذي بدا يكبر مع غروب الشمس.

كمن رائد وثلاثة من رفاقه المتقاربين عمريّاً، داخل السور الذي يحيط بالمدرسة الإعدادية المحاذية للشارع الرئيسي الواقع بداية البلدة، حيث استعدوا بزجاجاتهم الحارقة – المولوتوف – للهجوم على موكب الجنرال حال مغادرته البلدة:

رائد: أنت متأكد يا جمال. إن الموكب لن يسلك الطريق الفرعية من وسط البلدة؟

جمال: لن يستطيع ذلك لأنه سيضطر للعبور من بين الأهالي الغاضبين، إضافة إلى طول المسافة ومروره بعدَّة بلدات عربية مجاورة.

تدخل مجاهد قائلا:

صحيح أنني قرأت على شبكة الانترنت: إن من الاحتياطات الأمنية كسر الروتين، لكنني أشك في أن ذلك سيحدث هذا اليوم فإضافة لما قاله جمال، فإن أقسى ما يتوقعه حُرَّاس الجنرال أن تنْزل عليهم بعض الحجارة، مع أن ذلك لا يحدث عندنا إلا نادرا، وهذا الأمر يعالجونه بالسيارات المصفحة التي لا يخترقها الرصاص فضلا عن الحجارة.

- سرح جمال قليلا في حديث مجاهد الأخير ثم قال:

إذا كانت مصفحة، فلماذا نهاجمها بالمولوتوف ونحن نعلم أنَّ النار لن تدخل السيارة؟!

فقال رائد:

صحيح ما تقوله يا جمال ولكن؟! أرأيت النار وقد اشتعلت في مقدمة السيارة؟ ألا يوجد احتمال أن تنقلب أو تصطدم بالسور؟!.

فتدخل مجاهد قائلا:

أنا لا أعترض على كل ما قيل. لكنني أنظر للأمر من زاوية أعمق بكثير، أرأيتم أهلنا بالضفة وغزة، كيف يواجهون الرصاص بالحجارة، حتى مع وجود السلاح والاستشهاديين والصواريخ، أسألتم أنفسكم لما يفعلون ذلك؟ أنا سألت أبي فقال:

المقاومة أنواع وأشكال وفي حال شعبنا في الضفة والقطاع قد اكتملت الصورة لديهم إلى حد معقول، حيث المقاتل الذي يحمل البندقية وآخر

يطلق الصاروخ وثالث استشهادي بحزامه، وخطيب يحرض من منبره، وطبيب يقاوم بعلاج المصابين، وأستاذ يربي الأجيال على التضحية، وأم تقدم ابنها فداءً لله والوطن، وآخرون يقاومون بالحجارة وهي المستطاع بأيديهم، تعبيراً عن الرفض والمقاومة وعدم الخنوع والاستسلام كرمز لارتباط الحجر بالأرض، وكلاهما يرفض الغريب.

- استنفر مجاهد: ونحن في هذا الكمين نؤدّي صورةً مِن صُوَر المقاومة حسب استطاعتنا.

فقال جمال:

أخشى أن يكون لسانك قد زلَّ مع أبيك فانكشف أمرنا له، لأنَّ الأمر لا يحتمل أية أخطاء ونحن لا زلنا في بداية الطريق.

قال مجاهد:

لا. لا. حتى فجر هذا اليوم عندما خرجنا للكتابة على الجدران، خرجتُ كعادتي لصلاة الفجر في المسجد ولم يلحظ أحد شيئا.

صحيح، كيف كانت ردود الأفعال لدى الناس؟!.

- رد رائد بسرور:

لقد كانت مفاجأة غير متوقعة لأهل البلدة الذين بدأوا يتجمهرون باكراً أمام الشعارات حيث سمعت الحداد أبا سليم يقول: نصر الله دينكم وسلمت الأيدي التي كتبت.

فقال له جاره النَّجَّار أبو فتحي: ألا تريد أن تمسحها عن جدار

دكانك قبل أن تأتي الشرطة وترغمك على ذلك؟! فأجاب: أنا لم أكتبها ولن أمحوَها وإذا لزم الأمر سأغلق المحل هذا اليوم. وسمعت أبا منذر وشقيقه الذي يعمل شرطيا للمرور لدى الاحتلال، يتهكمان بالقول: لقد انتقل مخيم بلاطة إلى بلدتنا، وأبشِروا بِأسوأ من الشعارات إذا سكتُّم عن هذه الأعمال الصبيانية، فنحن لا نعرف لمَ كل هذا الغضب على زيادة مسؤول كبير في الدولة؟، كما أن المرء يعجب من هذه العقول؛ فأبو حسام يحاول تحصيل الحقوق الخدماتية والسياسية من خلال وجوده في الحزب، أمَّا هؤلاء، فيكتفون بالخربشة على الجدران.

- لكن الشيخ حسن إمام المسجد رد عليهما بالقول:

صحيح أننا مأمورون شرعا أن نحكم على الناس من خلال ظاهرهم وليس من خلال النوايا، ولكنْ ليس في حالة صاحبكما أبي حسام الذي يزعم تحصيل الحقوق؛ لأنه في المقابل رضي بأن يكون في حزب صهيوني يلغي حقَّنا القومي في بلدنا ويعتبرنا سكانًا من الدرجة العاشرة هذا الحزب الذي يقتل أهلنا منذ عشرات السنين ويشرد معظم شعبنا، ولا يزال يفعل ذلك، وأرجو عدم خداع النفس بكذبة الحقوق، فصاحبكم أبو حسام عضو في الحزب منذ عشرين عاماً، فما الجديد على البلدة؟! وكما يبدو أنكما لا تعيشان على مقربة من بيت الشهيد أسيل الذي قتله ضيف صاحبكما.

- انفرجت أسارير الشبان الثلاثة لدى سماعهم ما قاله الشيخ، وكانوا

لا يتجاوزون السادسة عشر من العمر. طلب بعدها رائد من جمال أن يذهب للاطمئنان على رفيقهم الرابع فوزي الذي يجلس على تلَّة مرتفعة تكشف بداية الطريق التي ستسلكها القافلة حيث سيقوم بإعطائهم إشارة لدى قدوم السيارات حتى يستعدوا للهجوم.

❖ ❖ ❖ ❖

- على مقربة من المضافة كان يقع منْزل من ثلاثة طوابق يسكنه تاجر مخدرات مشهور من عائلات الإجرام واسمه «أبو رامي» وغالبا ما يستضيف في الطابق الأعلى صحبة من رجاله لحمايته من خصومه في هذا العالم، حيث كان لهم نصيب في تناول قضية الضيف:

أبو رامي - تاجر المخدرات:

صدقوني لولا التفسيرات الخاطئة، ولولا أن يؤخذ الموضوع على المنحنى الأمني، لخرجت بسلاحي إلى المضافة وفرغت الرصاص في رأس أبي حسام!!.

- فصاح الحضور بصوت واحد: أضرب أبو رامي أضرب.

فاستطرد أبو رامي قائلا: ولكن، لا أريد أن تطير السَّكْرة من رأسي.

- فقهقه الحشاشون قهقهة السافرين، لكن أحدهم ويدعى نزار، سأل أبا رامي وهو يُعَمِّر رأس النارجيلة الصغيرة التي يدخنون فيها الحشيش:

لماذا تكره أبا حسام إلى هذا الحد وهو ابن عائلتك، وتربطكما علاقة صداقة منذ الصغر؟!.

- فتنهد أبو رامي تنهيدة من الأعماق وقال:

لست أكرهه، بل أكره تصرفاته الحمقاء التي استَعْدَت الناس علينا، وجعلت اسم العائلة تحت الأقدام، مما دفعه لوضع حارس شخصي له، صحيح أني لست كما ينبغي، ورأسي مثقل بالمخدرات وعندي وحوش من أمثالكم، لكنني سأقطع رأسي بيدي وأجعلكم تدخنون بجمجمتي الحشيش لو انتميت إلى جماعة سرقت بيت في قيسارية، بل قتلت عشرة من عائلتي وأولهم مختار القرية والد أبي حسام، وتسببت بسوء علاقتي مع زوجتي وابني البكر كما هو الحال مع ابن عمي.

- فتدخل مسطول آخر من الجالسين بالقول:

لكننا مستفيدون من علاقة أبي حسام بالدولة وقيادتها، حيث يغضُّون الطرف عنك كونك ابن عمه، على الرغم من علمهم بالمخدرات والسلاح الذي بأيدينا.

- فرد أبو رامي:

اخرس يا جاهل، عليك أن تقضي عشر سنوات في المهنة حتى تعلم المعادلة جيداً، ألم تذهب يوما إلى مدينة اللد أو البلدة القديمة في القدس؟ ألم تر بيع المخدرات العلني في أوساط العرب دون تحرك من جانب دولتهم، فلماذا برأيك يسكتون عن ذلك؟! بينما إذا حاول أحد

العرب أن يوسع داره تأتي كل الدولة لمنعه؟! أقترح أن تنشغل بتعمير رأسك، فلن يمسَّك أحد، سواء أكنت قريب أبي حسام أم لم أكن.

- وبينما الحديث يدور على وقع الضحكات المتناثرة، كان نزار يصوِّب رشاشه العوزي نحو المضافة التي تبعد مائة وخمسين متراً عن الشقة، فصرخ عليه أبو رامي قائلا:

أنزل العوزي أيها الأحمق، أتريد أن يعكر صاروخٌ صفوَ رؤوسنا؟!

فقال نزار:

تعلمون أنني قبل أن أتشرف بالتعرف على حضراتكم، كنت أعمل في البناء، وقد بنيتُ لأبي حسام هذه المضافة التي ترونها، لكن الذي تجهلونه يا معشر الحشاشين، أنني أنظر الآن مباشرة إلى رأس الجنرال!!

- فقهقه الجميع على كلامه، وقال أبو رامي:

يبدو أن كمية الحشيش التي تجرعتها، اختلطت مع كتلة الغباء التي تسكن هذا الرأس الذي يشبه رأس حمار الأستاذ أحمد، فأنتجت خزعبلاتك هذه.

فرد نزار بالقول:

– نعم، معكم الحق في قول ذلك لأنكم لا ترون إلا جدارًا كرأسي، ولكنني أرى النافذة التي طلب مني أبو حسام أن أغلقها بالطوب الرقيق بعد أن بنيناها وتقع أمام ناظري مباشرة، وصباحاً عندما كنت أوصل لحسام شيئا طلبه مني رأيت المضافة من الداخل، ورأيت أين يضعون

منصَّة الخطابة التي سيقف عليها حضرة الجنرال والواقعة بالضبط في منتصف النافذة المغلقة.

- فصرخ عليه أبو رامي بغضب:

اسكت أيها الغبي ولا تأتِ على ذكر هذا الأمر لأحد، وإلا زرناك في سجن عسقلان، ولا تصوب سلاحك للمضافة أو ترفعه، وإلا عالجت رأسك بالهروين.

- لكن نزار المسطول، ظل من حين إلى آخر يصوب رشاشه نحو جدار المضافة ويتخيل اللحظة التي يخطب فيها الجنرال ويطلق النار عليه، وبقي أبو رامي يصرخ عليه كلما رآه يفعل ذلك، وجرى الأمر على وقع الضحك والانبساط.

أما داخل المضافة فكانت الخطابات الرنانة التي ترحب بالضيف الكبير ومساعديه، وكانت مناسبة أيضا لمباركة انتساب أعضاء جدد للحزب من بلدة أبي حسام والبلدات المجاورة، وكان واضحاً ترقب الجميع لكلمة الجنرال المترشح لقيادة الحزب والطامع بأصوات الحضور يوم الانتخابات الداخلية، وفي تلك اللحظات، كانت أم حسام منهمكة مع خادمتها بإعداد القهوة العربية الأصلية التي تفوح منها رائحة

الهال، وفي الوقت الذي كان أبو حسام يؤَهِّلُ ويسهِّلُ بالضيوف، كان حسام يحدق تارة في العَلَم الإسرائيلي المعلق على طول الجدار الخلفي للمنصة وتارة بالجنرال الذي كان يجلس بزُهُوٍّ كبير يرتدي بدلة مدنية، ويوزع الابتسامات المخادعة على الجميع الحاضرين، الذين جلسوا على الكراسي المصففة داخل القاعة يتقدمهم كبار السن وبعضهم يعتمر الكوفية الفلسطينية والعقال على رأسه.

في تلك اللحظة، وقف الجنرال خلف المنصة وظهره للعلمين وبدأ في دعايته الانتخابية متناولاً رؤيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مركزا على دور التنمية في الوسط العربي، واعداً أن يكون التغيير على أيديه حال انتخابه رئيسا للحزب، مما سيفضي إلى وصول الحزب إلى أعلى الأصوات في الانتخابات البرلمانية القادمة - الكنيست - وكان صوت مكبرات الصوت يعلو الحيَّ كلَّه، وبينما الجنرال يتحدث عن التنمية، قاطَعَهُ أحد الجالسين في الأمام قائلا:

- لقد سمعت هذا الهراء ألف مرة، ولم يتغير شيء على الإطلاق، بل ازداد الأمر سوءا، وكلما جاءت حكومة جديدة، كانت ألْعَنَ من أُختها السابقة.

حاول منظمو الدعاية أن يطلبوا من المتدخل الجلوس، لكنه رفض ذلك مستطرداً: أيها السيد الجنرال، أعمل في البلدية منذ عشرين عاما، وقد عانينا إهمالا متعمداً من حكوماتكم المتعاقبة، منذ عام كامل لم أتقاضَ

راتبي.

- عندها رد الجنرال بالقول:

أنا أتفق جزئيا معك بأن الإهمال قد أصاب الوسط العربي، لكنني أؤكد لك بأنه لم يكن مقصودا أبداً، وأنا بنفسي عندما كنت وزيراً للمواصلات في إحدى الحكومات السابقة أوصيت بتشكيل اللجان المختصة للعمل على حل الإشكالات العالقة.

قاطعه أحد الحضور من الخلف قائلا:

- صحيح أنك شكَّلْتَ اللجان، لكنها اعتذرت عن عدم المجيء، لأن سيارات اللجان الفارهة لا تستطيع عبور الشوارع المليئة بالحفر، كما أنهم لا يريدون خدش مشاعرهم برؤية الصرف الصحي المتدفق في الشوارع.

- فضحك الحضور، وتشجع رجل كبير السن يجلس في المقدمة للحديث:

ولماذا ترفضون إعطاءنا ترخيصاً لبناء جامعة عربية في الوسط العربي، بل تضيِّقُون على أبنائنا الذين يتخرجون من جامعاتكم؟!

فاستنكر الجنرال ذلك بالقول!

هذا غير صحيح، فالخريجون يُمكنهم العمل أينما كانوا، أمَّا موضوع الجامعة فهذا يعود إلى الجهات المختصة، كما أنَّ الجامعات العبرية مفتوحة لكل مواطني الدولة.

فرد السائل:

هذه الجهات المختصة لا زالت ترد بالرفض على طلباتنا منذ أكثر من

عشرين عامًا.

- وهنا ساد بعض التوتر في المضافة ولم تفلح محاولات الجنرال في إقناع بعض الحضور، حتى سأل أحد الحاضرين سؤالا كان كالقنبلة الكبيرة:

- وماذا فعلت أنت عندما كنت وزيراً في الأمن الداخلي وعضواً في المجلس الوزاري المصغر؟

- قالها السائل بصورة غاضبة، ردَّ عليه جالس آخر قبل أن يتحدث الجنرال:

أعطى الأوامر بقتل ثلاثة عشر شهيدا من أبنائنا، ودافع عن القتل في المحاكم الصورية، ويأتي الآن حتى يأخذ تواقيعنا على جريمته هذه.

- وأضاف جالسٌ ثالث:

وكان من أبرز الذين وافقوا على قصف المدنيين في الضفة والقطاع، وقتل ١١ طفلا في قصف البناية التي يسكنون فيها بحي الدرج في غزة.

- ساد هرج ومرج القاعة ما بين فريق قليل يهاجم الجنرال وما بين فريق كبير يدافع عنه، ومع ذلك حاول الجنرال امتصاص نقمة الغاضبين، وفتح المجال للحديث المفتوح، وكل ذلك وحسام يغلي كالبركان وعيناه تقدحان شرارًا وهو يحدق بوجه الجنرال دون أن يراه، حينما وقف أبرز الأعضاء الجدد قائلا: اسمع أيها الجنرال سأعرض عليك خمسمائة اسم من عائلتي سيكونون لك في كل انتخابات داخلية وتشريعية

ويصبحون أعضاءً في الحزب فما رأيك؟!

- انفرجت أسارير الجنرال لذلك بعد أن عكَّرها الهجوم اللاذع عليه وقال:

سيكون ذلك من دواعي سروري وسترى كيف يمكنني العمل على تنمية الوسط العربي وتقدمه باتجاه المساواة مع مواطني الدولة كافة.

فردَّ صاحب العرض قائلا:

ولكن!! بشرط صغير وشخصي، أن تتبنى أنت وكُتلتُك داخل الحزب، دعمي في مساعٍ لإعادة أرضي المصادرة منذ عام ٤٨، فأنا لازلت أملك أوراقها الثبوتية والقانونية وهي لا تزال موجودة على حالها في قيسارية، وأنا في ذات الوقت أحمل الجنسية الإسرائيلية مثلك تماما، فما رأيك؟!

- تلون وجه الجنرال وصمت هنيهة ثم قال:

كما تعلمون فإن الموضوع أكبر من أن يتبناه حزب، فالقضية سياسية بامتياز، ولا يمكن قطع الوعود لذلك، لكنك تستطيع التوجه للمحكمة.

- عندها ابتسم السائل في وجهه وأخرج بطاقة العضوية للحزب من جيبه ومزقها قائلا:

لم أكن غبياً عندما عرضت عليك عرضي ولكن أحببت أن يعلم الجالسون حقيقة الحزب الذي ينتمون إليه، هذا الحزب المماثل لكل الأحزاب الصهيونية التي صادرت أرضنا وسنَّت القوانين التي تقتضي بعدم أحقيتنا بالعودة إليها، هذا الحزب الذي يجيز لأي يهودي في أقصى

العالم أن يأتي إلى فلسطين ويستوطن فيها ولو تهوَّد البارحة، بينما يُحَرِّم عودة أصحابها الأصليين ولو كانوا حملة الجنسية الإسرائيلية، وجاء آخر الأمر ذلك القانون الجديد الذي صادق عليه سيادة الجنرال كونه عضوًا في الكنيست، ويقضي بعدم بيع أراضٍ لعرب الثمانية والأربعين، أما الأمر الأخير الذي أريدكم أن تروه: فهذه الصورة للشهيد أسيل الذي قتله هذا المجرم ويقف أمامكم الآن.....

- كانت العبارة الأخيرة، ناراً دبت في الهشيم، فَعَلا الصراخ في القاعة، ما بين الشتائم للجنرال طالباً منه الابتعاد عن المنصة والانصراف من البلدة، وبين جمع المؤيدين الذين حاولوا طرد المتحدث الأخير حتى وصل الأمر للعراك بالأيدي ولم تفلح محاولات أبي حسام لتهدئة الأمور.

وبينما كان الجنرال ينادي الجميع بالهدوء عبر الميكرفون، وقف على جانبيه جمع من الحراس لحمايته، حيث رفض الانصياع لأوامرهم بالابتعاد عن المنصة، دوت الطلقات جنبات المضافة وتبعها إطلاق نار من كل الجهات، حيث أصاب حُرَّاس الجنرال مسٌّ من الجنون، وبدءوا إطلاق النار في كل مكان، في الوقت الذي أخرج فيه مجموعة منهم الجنرال عبر ممر جانبي، وانطلقت به السيارة بسرعة البرق دون أن يتمكن أحد من معرفة ما يحدث، غير أن المشهد كان مروِّعاً وكأنه ساحة حرب، حيث الصراخ من المصابين على الأرض وبعض القتلى من الحضور وأبرزهم أبو حسام وحارسه.

الشخصان اللذان كانا مضَرَّجَيْنِ بدمائهما، وبعد لحظات ساخنة جدا هدأ الرصاص وطلب الحراس الذين تبقوا في المكان من الجميع أن يبقوا منبطحين على الأرض، ومنعوا أي شخص من الخروج.

في تلك الأثناء كان الصراخ ينبعث من الممر الواصل بين مطبخ المضافة وبيت أبي حسام حيث صوت بكاء الأطفال، الأمر الذي لفت انتباه حسام الذي كان يجلس قرب رأس والده الميت في حالة صدمة كاملة منعته من البكاء، وكأنه يقول في داخله وهو ينظر صوب الممر والجدران التي اخترقهما الرصاص:

لعلِّي لازلت في السرير أحلم في تلك الكوابيس اليومية، لا، لا، لا يمكن أن تكون الحقيقة هكذا فأي رجل قاس وشديد لا يموت هكذا، وأما إخوتي فلا زالوا نياما يحلمون أحلام العصافير، نعم، نعم، أنا لازلت نائما.

ضجت البلدة على وقع الرصاص الغزير الذي دار في المضافة، حيث كان الناس لا يزالون يعتصمون في مركز البلدة وقد تجمهروا لمعرفة الذي يحدث وقد كست الحيرة وجوه الجميع، بينما كانت إيناس تحدق في وجه سعاد التي بدت مشدودة تقبض على ورقة صغيرة بيدها!!. حيث، أتت إيناس بها جانبا وقالت:

ما الذي دهاك يا سعاد، لقد تكدر وجهك وحدك من بين الناس فما الذي أصابك؟!

- فردت سعاد بصوت خافت ممزوج بعبرات حسية المقل:

خذيني إلى البيت بهدوء دون شعور أحد فلست أقوى على الوقوف، وهناك سنتحدث، وبينما كانتا تسيران بخطى ثقيلة جداً، وكانت قوات الأمن الإسرائيلية تدخل البلدة بأعداد ضخمة، وتنتشر حول المضافة، والإسعافات العسكرية تنقل المصابين والقتلى تحت حراسة مشددة، بينما كانت طائرة تحوم فوق البلدة، الأمر الذي دفع الناس للتفرق والعودة للبيوت باستثناء بعض العائلات التي لها أبناء داخل المضافة.

وصلت سعاد وإيناس البيت بالتزامن مع وصول الأستاذ أحمد عائداً من حقله، وفورًا انفجرت سعاد باكية وهي ترتمي في أحضان والدها قائلة:

لقد ذهب حسام يا والدي لقد ذهب.

فهدهد براحته عليها وهو يقول:

لا تستعجلي النتائج يا ابنتي فلا زلنا نجهل ما حدث هناك.

- وفجأة، تذكرَتْ سعاد الورقة التي في يدها وسارعت لقراءتها، فقد كانت من حسام الذي طلب منها عدم فتحها إلا بعد الساعة السادسة مساءً وكتب فيها:

أعلم أنني لم أقلها لك يوما، ولا طالما حلمت باللحظة التي أقول فيها إنَّني أحبك، غير أني ما رضيت أن أختصر عالمك في كلمة واحدة، وأنت

فوق الكلمات والأوصاف، ولعل الرباط الذي جمع بين قلبينا أقوى من كل مألوف، لذا فإني أخاطبك الساعة معترضا، إني أمسك الحقيقة بيدي بعد أن كبرت في عقلي وقلبي، وقد تحررتُ مِن خوفي الذي يسكنني منذ زمن بعيد، لا أدري أيَّةُ لحظات ستكون لكنها بالقطع خير من كل اللحظات السابقة، وفي الختام. كم حلمت أن أراكِ عروسا تُزيحين بؤس السنين عن حياتي فكوني عروسًا كما كنت، سيِّدةً في الكبرياء والعفة، وتذكري دوما اسما طالما أحبك - حسام.

- تسمرت سعاد مكانها، ومن ثم أدارت وجهها نحو أبيها وقالت:

لقد علمتني الصراحة يا أبي، وزرعت فيَّ الثقة إلى أبعد الحدود، وعلمت أن حسام كان يريد خطبتي منك، والآن ترك لي هذه الرسالة فانظر إليها.

- قرأ الأستاذ أحمد الرسالة بعناية فائقة وقال وهو في قمة الحذر:

هذه الرسالة يجب أن تُحرق حالا وتكتُما أمرها حتى عن نفسيكما، فالآن فهمت تلك النظرات التي كانت في عينَي حسام عند الحاجز، واعلمي يا ابنتي أنَّ كلمات حسام قد زادت مكانته عندي وعمَّقت قناعتي بصلاح قلبه وبمعدنه الأصيل، وسنرى بعد قليل ما الذي حدث هناك.

- فقالت إيناس:

أنا لا أفهم شيئا، فما علاقة مستقبل سعاد وحسام فيما جرى هناك؟!

فردت عليها سعاد:

لقد أخبرتك قبل ساعة أن حسامًا يعيش في زمن أبيه مكرها، وينتظر الساعة التي يحرر فيها نفسه وأمه وعائلته من هذا الواقع السيء، وستعلمين الكثير عنه حال اتضاح الأمور.

❖ ❖ ❖ ❖

ذات الحيرة كانت تجري في بيت أبي أسيل، حيث تحلَّقت العائلة أمام التلفاز الذي بدأ بثا مباشرا عن الحدث، فقال أبو أسيل:

يبدو أن ما جرى كبيراً جداً جداً، انظروا إلى وجوه الإعلاميين الذين يُخفون أمراً خطيراً، وإن لم يخب ظني فإنَّ الجنرال قد مات؟؟

- فنهضت أم أسيل على قدمها ورفعت يديها إلى السماء قائلة:

يا رب، يا رب خذه إلى جهنم وبئس المصير، وأرح قلبي يا الله.

- فصرخت الجدة بأعلى صوتها:

نذر علي إن مات لاذبحنَّ عجلاً وفوقه خاروف، ولأصومنَّ شهراً كاملاً.

- فارتسمت الابتسامة على وجه أبي أسيل الذي تذكر أمراً:

أين رائد؟! هل رآه أحد خلال الاعتصام؟! أين يغيب في هذه الظروف؟!

- وما إن أكمل كلمته الأخيرة حتى دخل رائد البيت مسرعاً يسأل:

هل مات الجنرال؟! هل أعلنوا عن ذلك؟! من فعل ذلك؟!

- فقال له أبوه:

على مهلك يا ولدي، لا زالت الأخبار في بدايتها وهم يتكتمون على ما يحدث، غير أنهم يشيرون إلى مأساة حدثت، وأظن أنه الآن في الجحيم يتلقى الوعيد.

فقال رائد:

نعم، نعم لقد سمعت في طريقي إلى البيت أن قوة كوماندوز من الفدائيين قد اقتحمت المضافة وفتحت النار على الجنرال وحراسه، وهناك من يقول: إنَّ شخصاً من داخل المضافة قد أطلق النار على الجنرال فاندلعت بعدها الاشتباكات.

فسأل أبو أسيل:

وأين كنت طيلة النهار، لقد قلقنا عليك؟!

فارتبك قليلا ثم أجاب:

لقد كنت مع أصدقائي في النادي ولما سمعنا إطلاق النار عدنا إلى منازلنا وها أنا أمامك أسعد إنسان على وجه الأرض، وأتمنى لو كنتُ في المضافة.

فقال أبوه:

اصمت ولا تتفوه بكلمة واحدة وإلا أوقعتنا في مشكلة كبيرة، فالحدث أكبر مما تتصور وسيكون له ما بعده، واحتمال أن تكون تحت المجهر.

أعلن التلفزيون الإسرائيلي نبأ مقتل الجنرال المرشح لرئاسة الحزب بطلقة اخترقت رأسه، إضافة إلى مقتل أحد حراسه الشخصيين وصاحب المضافة أبي حسام وزوجته وحارسه وثلاثة من أعضاء الحزب العرب، وإصابة عشرة أشخاص بجروح، وقد أعلنت أجهزة الدولة استنفارها حيث فرضت حظر التجول على البلدة، وبدأت أعمال التحقيق بإشراف رئيس الوزراء ذاته، واعتبرت منطقة الحادث ساحة جريمة، وشكلت طاقماً خاصاً للتحقيق في مركز (بيتاح تكفا)، وبدأت ملامح العملية تتضح حتى في الإعلام حيث قُبض على حسام نجل صاحب المضافة وهو يحمل مسدسا أُطلق منه النار، ويشتبهون بأشخاص آخرين قد اشتركوا في العملية.

❖ ❖ ❖ ❖

أحاط الجنود المدججون بالسلاح بحسام وهم ينزلونه من السيارة مُقَيَّد القدمين والرِّجلين معصوب العينين، وتدافعوا به نحو ممرات عديدة دون أن يُعرف المكان، وما هي إلا لحظات حتى فُتح باب كهربائي، فسلَّمه الجنود إلى أيدٍ خشنة، وأفواه تتلفظ بأسوأ الكلمات:

- أهلا بالإرهابي الكبير، لقد وصلت إلى المسلخ الذي ستشهد فيه نهايتك، ستكتشف الآن بأنك لا تعيش على الأرض وأنَّ أمَّك لم تلدك بعد.

وعلى الفور أرغموه على خلع ملابسه كاملة وأجرَوْا عليه تفتيشاً دقيقاً لكافة أنحاء جسمه، حيث أمروه بالنزول والصعود وفتح الفم وتفتيش الشعر، ومن ثم أمروه بارتداء ملابسه المليئة بالدم وأخذوا مقتنياته الشخصية، وما لفت انتباه السجانين عثورهم على حذاء طفلة صغيرة في ملابسه حيث قال أحدهم:

- ما هذا أيها الغبي، أتسرق أحذية الأطفال من البيوت؟!

فرد سجان آخر:

- أو يحن إلى الطفولة التي سرقها منه الغول - ها - ها - ها -.

كان حسام لا يزال صامتا، لكنه كان ينظر إلى الحذاء بحنان، ورد نظراته صفعة على خده من أحد الحراس الذين أمروه بالمشي نحو الطبيب الذي فحصه وقدَّم تقريره العاجل ومن ثم وضع السجان كيساً نتناً على رأسه منعه من رؤية شيء واقتاده نحو درجات متعرجه صعوداً وبعد لحظات من الانتظار في نقطة معينة على رأس الدرج، فتح السجان باباً دخلا منه، وسارا في ممر هادئ إلا من صوت الموسيقى العالية وفجأة: أدخل السجان حساماً إلى غرفة وغادر.

وقف حسام في غرفة المكيف يخيم عليها الهدوء الكامل وكان يقول في نفسه:

- يا خفيَّ الألطاف نجنا مما نخاف، يا خفي الألطاف نجِّنا مما نخاف.

حيث تذكر هذا الدعاء الذي كانت ترددہ جدته عند المصائب، وفجأة رفع شخص الكيس عن رأسه وقال:

مرحبا بالبطل، لقد شرَّفْتَنا بقدومك إلى مركز (بيتاح تكفا) العظيم.

نظر حسام داخل الغرفة فوجد فيها أربعة أشخاص يرتدون الملابس المدنية يجلسون على الكراسي، حيث طلب أحدهم من حسام أن يجلس وقال:

- تفضل، تفضل يا حسام، اعتبِرْ نفسك في بيتك.

بقي حسام صامتاً يبدو عليه الإرهـاق والتعب، ونـظرات الأربعة تتفحصه.

قال المتحدث الأول:

- أعرِّفُك على أصدقائك الجدد، كوبي، يوني، راني ومحسوبك الميجر عوز ونحن باختصار سنقفل الملف بأقصى سرعة ممكنة، وإنْ شئت يمكننا إنهاؤه الليلة. فما رأيك؟!

لم يجب حسام، فرد كوبي عليه:

- يبدو أن حسامًا متأثرٌ بالمشاهد التي رآها اليوم، والحقيقة أنني لا أحسده على هذا الموقف ولكن!!

أكمل راني الحديث بسرعة:

- ولكن، قد يخفف عنه ما فعله المسدس الذي كان بحوزته، أليس كذلك يا حسام فلقد فعلتَ ما عجِزَتْ عنْه الجيوش!!

قالها كوبي وهو يقترب إلى نقطة الصفر من وجه حسام.

تدخل الميجر قائلا:

- مهلاً، مهلاً يا أصدقاء، لا تثقلوا بالأسئلة على حسام فهو متعب الآن، وأقترح أن يأخذ كأساً من الشاي يدفِئ به اللسان فينطق بالكلام.

في تلك اللحظات كان المحقق يوني يشمر عن يديه ويخلع ساعةَ يَدِهِ ويَضَعها على الطاولة.

ويرمق حسام بنظرات غاضبة كأنه وحش يستعد للانقضاض على فريسته.

وبكلمات سريعة خاطفة قال الميجر:

- تعازينا لك يا حسام بوفاة والدك واعلم أن ما فعلته لنا يدفعنا للانتقام منك فنحن لسنا عصابة بل يوجد عندنا قانون.

لم يرد حسام، فقال راني: أليس من الأدب أن ترد على التعزية بالشكر؟!

فقال الميجر: اعذره على ذلك فالمصيبة كبيرة جداً رغم المُصاب الذي لحق بنا، ولكنّ يا حسام هذه نصف المصيبة بالنسبة لك!!

اضطرب قلب حسام وارتعشَ جسدُه وذهب أتلى صوت البكاء الذي سمعه وهو يجلس قرب جثة أبيه، وانتظر الكلمات التي ستخرج من فم الميجر.

- يا حسام: إن أقسى الفجائع التي يمكن أن تصيب الإنسان في حياته،

أن يفقد عزيزا عليه بحجم الوالد، فكيف إذا فقد...!!

وسكت الميجر مُبْدِيًا تأثُّره وعدم استطاعته إكمال الحديث، فأكمل راني:

نعزيك بوفاة والدتك أيضا يا حسام.

فانفجر حسام بالبكاء وأخذ يصرخ بأعلى صوته:

يا قتلة، يا مجرمين، يا سفاحين.

- فارتسمت الابتسامة على وجوه الأربعة، فقد حققوا هدفهم بدفعه للكلام.

- خرج الميجر من الغرفة طالباً إكمال الحديث ريثما يعود، وعلى الفور جلس يوني على الكرسي المقابل لحسام وقال له وهو يحدق بعينيه:

- اسمع أيها الكلب، لا أريد منك أن تقول لي ما حدث، بل أريد ما سيحدث الآن، وإن كذبت بكلمة واحدة، سأجعلك تلد الكلمات من مؤخرتك.

فردَّ حسام: لا أعرف عن ماذا تتحدث، قالها وهو ينظر إلى وجوه الثلاثة المرعبة.

فقال يوني:

- أجلسوه على الكرسي الذي لا يوجد له ظهر واربطوا يديه برجليه من الخلف، فسأعلمه الحديث على أصوله.

- أصبح ظهر حسام مقوساً بصورة مؤذية وكأنه دائرة واحدة مع

الجسد، وجلس خلفه كوبي وهو يضع قدمه على الأصفاد المشدودة التي قيَّدت القدمين واليدين معاً، وأخذ يضغط ويقول:

أين ستكون العملية الثانية، مَن الهدف القادم، تكلم وإلا جعلناك مشلولاً.

- فأخذ حسام بالصراخ من شدة الألم وهو يردد:

لا أعرف شيئاً، أقسم بالله العظيم أنني لا أعرف عن ماذا تتحدثون.

فقال له راني: اسمع سيد مؤمن، في هذه الغرفة لا تحلف بأحد أبداً، ومن أجل ذلك سأفتح درج المكتب الآن وسأضع الله فيه، ولا تردد بعدها القسم.

- عندها، استغفر حسام في داخله وقال يا رب، وهو يصرخ من شدة الألم.

- فتقدم يوني واضعاً ركبتيه على ركبتي حسام وأخذ يضربه بيده على العضو التناسلي ويقول:

تكلم وإلا جعلتك عقيماً فاضْطررت إلى تحويل نفسك لامرأة، تكلم عن الأشخاص الذين يستعدون لتنفيذ العملية الآن، من هي الشخصية البديلة التي تنوون قتلها.

- كان الصراخ يملأ الغرفة محكمة الإغلاق، ومع ذلك استمر التعذيب على هذه الطريقة، وأضف شيئاً آخر عندما وقف راني على بطن حسام وهو يقول: تحدث قبل أن تموت، أنقذ نفسك وإخوتك الصغار الذين

ينتظرونك بعد موت والديك، هيا أيها الحشرة التي سأسحقها بقدمي، تكلم عن العملية القادمة.

- وفجأة!! فقد حسام الوعي فأوقفوا التعذيب قليلاً ورشوه ببعض الماء فاستيقظ ثم أعادوا الكرّة مرات ومرات وفي كل مرة كان حسام يطلب الحديث: سأتكلم. سأتكلم، أوقفوا التعذيب، أوقفوا التعذيب.

- وعندما يرتاح للحظات يعاود القول:

إنني لا أعرف أحدا ولا أنوي فعل شيء.

- فينزل الغضب مجددا وبعنف أقسى، وتشتد الأوجاع في جسم حسام.

❖ ❖ ❖ ❖

في تلك الساعات الطويلة من الليلة الأولى، كانت قيادات عليا للدولة تعقد غرفة عمليات في مركز التحقيق وتتابع مجريات التحقيق مع حسام وهناك في ساحة الاعتقال، وكانت في سرعة مع الوقت لأن الجنرال كان أرفع شخصية إسرائيلية تقتل على أيدٍ معادية داخل فلسطين، كما أنها تريد تفصيلاً سريعاً لوضعه على طاولة رئيس الوزراء.

❖ ❖ ❖ ❖

في صباح اليوم الأول، دخل الميجر إلى الغرفة ،وأبدى انزعاجه لما حدث لحسام قائلا:

ما هذا ما الذي فعلتموه بحسام؟! لقد قلت لكم أكملوا الحديث ولم أقل عذبوا الرجل، هيا فكُّوا القيود عنه واخْرُجوا من الغرفة.

- جلس حسام على الكرسي الطبيعي وقد تخدر جسده من التعذيب، وشعر بالراحة النسبية، وبأنه تخلص من الوحوش الثلاثة الذين كادوا يقتلونه.

قال الميجر:

- اسمع يا حسام: لا بد أنَّك تعبٌ الآن، أتشعر بالجوع بعد هذه الليلة الصعبة التي أعتذر لك عنها؟، فقد اضطررت للذهاب إلى البيت، وسأتركك الآن حتى ترتاح وتأكل وتفكر جيدا في الإجابة على سؤال واحد: كيف قتلت الجنرال ومن كان معك في العملية وإلى أي فصيل تنتمي؟!

- حاول حسام الكلام، فقاطعه الميجر بكل هدوء قائلا:

لا أريد منك الإجابة الآن، اذهب للزنزانة المجاورة وخذ قسطاً من الراحة وفكر جيداً بما طلبته منك، وغداً الظهر سأطلبك عندي، ولكن قبل أن تذهب، أريد أن أخبرك بأننا اعتقلنا من أعطاك المسدس صباح الأمس في المضافة!!

- تلوّن وجه حسام الذي حاول مرة أخرى الحديث فمنعه الميجر، ومن ثم استدعى الميجر سجاناً لأخذ حسام إلى الزنزانة، حيث وضع الكيس على رأسه واقتاده عبر الممر إلى زنزانة تقع آخره وأدخل حسام فيها وطلب منه خلع الكيس وإخراجه.

- أخذ حسام ينظر إلى الزنزانة ويتحدث مع نفسه:

يا الله، ما هذا العالم القذر، الجدران غامقة كوجوههم، ومدببة الطلاء حتى لا يرتاح بالاتكاء عليها أحد، أين سأقضي حاجتي؟! ما هذا، وعاء قذر لقضاء الحاجة تفوح منه رائحة نتنة، وما هذا الفراش الرديء، والضوء الخافت الذي يتوسط الزنزانة، يا الله أعِنِّي.

- جلس حسام في هذا الجو الرهيب الموحش وما هي إلا لحظات حتى فتح باب الزنزانة، وأدخل السجان صحناً فيه أربعة شرائح صغيرة من الخبز مع قليل من المربى وأغلق الباب.

- لم يكن حسام جائعاً بقدر ما كان تعباً من شدة التعذيب والنعاس فألقى بجسده على تلك الفرشة القذرة وعيناه تتفحصان تفاصيل الزنزانة التي مُلِئَتْ بالكلمات المتناثرة والمكتوبة ببقايا السجائر أو المحفورة حفراً بأشياء صغيرة، وأخذ يحدث نفسه:

يا الله، كم من الخلق مرُّوا على هذه الزنزانة، وما هذه الكلمات الرهيبة:

صبر ساعة خير من معاناة ألف ساعة، فكر بكلمة واحدة فقط «لن أعترف»، لا تثق بهم أبداً، كل الزنازين وخارجها مليء بالخائنين فلا تثق حتى لو رأيت أمك.

- هنا انفجر حسام بالبكاء عندما تلفظ بكلمة أمك، حيث تذكر والدته وقال:

رحمك الله يا أمي، ليتك وضعت التراب على جسدي قبل أن ترحلي، آه يا حبيبتي.

- وراح حسام في نوم عميق ولم يشعر كيف نام، لكنه رأى في منامه حلما جميلا:

أمي، ما أجملك يا أمي ما أجمل ثيابك البيضاء المزركشة بالورود، أين أنت الآن يا حبيبتي؟!

ردت أم حسام وهي ترفرف بجناحين كبيرين:

أنا في حديقة جميلة، مليئة بالأزهار والبساتين، ومن حولي أطفال صغار يلعبون.

قال حسام:

وهل أنتِ سعيدة يا أمي؟!

أم حسام: السعادة يا ولدي هبة من الله يرزقها لمن يستحقها وأنا هنا في شيء أكبر من السعادة لا أقوى على وصفه.

حسام: هل ترين «حياة الصغير»، تلك الطفلة البريئة؟!

أم حسام: إنها تلعب مع الفراشات النورانية وتطير كالعصفور على أغصان الشجر وترتدي في إحدى قدميها الصغيرتين فردة حذاء، وها هي تضحك في وجهي.

حسام: أَقْرِئيها يا أمي السلام، وأخبريها أنني ما زلت على العهد.

فردت الأم: عهدك يا ولدي دين في رقبتك، فلا تجعل شيئاً يحول دون

تحقيقه.

حسام: خذيني معك يا أمي، لقد تعبت كثيرا.

ردت عليه:

ليس بعد يا حبيبي، فمكانك هناك حيث سعاد و...

- استيقظ حسام مذعوراً على صوت السجان الذي فتح باب الزنزانة بقوة، ولم يسمع تكملة العبارة، حيث أمره بالوقوف على قدميه وقرأ اسمه الأول:

حسام؟!

رد حسام: نعم حسام.

فقال السجان: قل اسم عائلتك أيها الغبي، فأنت الآن في عدد الظهيرة.

- خرج السجان وجلس حسام بعد أن شعر براحة عظيمة لدى رؤية والدته، حيث أمدته بقوة كبيرة جعلته يخاطب الكلمات التي على الجدران:

عهداً يا كلمة الصبر لأنقشنك بين عيني، أما أنتِ ثقتي فلن تكوني لغير الله عز وجل، نعم! صبر ساعة وساعة أخرى، وستنقضي الساعات ويجيء بعدها الفرج.

في تلك اللحظات، كان الميجر عوز يستقبل نزار في غرفة التحقيق:

أهلا وسهلا بالحشاش الذي أفاق وأصبح مناضلاً.

نظر إليه نزار بعينيه المحمرتين قائلا:

أقترح أن تبقى على الأولى فهي تروق لي كثيراً وتبقيني في عالم غير عالمكم هذا.

- ابتسم الميجر وقال:

هذه بداية جيدة ستقودنا إلى نهاية جيدة، إذا بدأنا الأمر بصدق وصراحة.

قال نزار:

أريد سيجارة، فأنا لا أستطيع الحديث بدونها.

رد الميجر: وأنا أريد قبلها ثمناً بسيطاً جداً جداً، فما رأيك؟!

قال نزار: اطلب الثمن الذي تريد.

الميجر: ماذا كنت تفعل البارحة صباحاً في مضافة أبي حسام؟!

نزار: لم أفعل شيئاً، لقد ذهبت لزيارة أبي حسام.

الميجر: اسمع يا نزار، أنت تعلم أننا نعرف عنك كل شيء ولسنا بحاجة إلى ملف المخدرات فهذا ليس شأنُنا، بل يسعدنا أنك كنت قبل البارحة بعيداً عن اختصاصنا، أما اليوم. فأنت أهم الضيوف عندنا، وأنصحك أن تسرع بالحديث فما رأيك؟!

نزار: وهل زيارتي للمضافة تعتبرونها تهمة؟!

الميجر: أنت سجين جنائي سابق وتعرف تماماً أساليب التحقيق، لكنك لا تعرف كيف يلد الذكر عندنا، لذلك تكلم قبل أن يحضر إليك من

ستلد على أيديهم.

بلع نزار ريقه وقال:

قل أنت بالضبط ماذا تريد وسأجيب.

الميجر: بصماتك توجد في المكان، وهذا ما لم تحسب حسابه، وأنصحك أن لا تضيع وقتك ولا تجعلنا نذهب بعيداً في تفكيرنا، فالاحتمال أن يكون قد غُرِّرَ بك وارد.

نزار: لم أكن أعرف أن هذا سيحدث ولو كنتُ أعلم الأمر لما أعطيته المسدس.

الميجر: اشرح لي بالضبط، كيف بدأ الأمر وأين.

نزار: جاءني حسام قبل يومين وطلب استعارة مسدس ليوم واحد حتى يحرس أباه يوم استضافة أعضاء الحزب، رفضتُ في البداية لأنني لا أستطيع التخلي عنه، لكنه أعطاني «ألف شيقل» مقابل الاستعارة، وقد أقنعني أن أحداً لن يرى المسدس.

الميجر: لم يخطر ببالك أبداً أنه سيقتل الجنرال؟!

نزار: وكيف لي أن أعرف ذلك وهو ابن أحد أشهر أعضاء أحد الأحزاب الصهيونية؟!

كما أنني أمِلْتُ أن أحظى بمكانة عند أبيه.

الميجر: نعم - نعم، تقصد حتى يغطي على أعمالك مع أبي رامي ولكن!! لم تقل لي، متى وكيف سلَّمْتَ المسدَّس؟!

نزار: ذهب صباح البارحة إلى المضافة، وأعطيته إياه.

الميجر: وأين كنت طيلة البارحة؟!

نزار: كنت في داري وزوجتي تشهد على ذلك.

الميجر: هنا انتهى دوري، لأنني رجل الصِّدق والصراحة ولا أحتمل أن أجلس مع حشاش وكذاب، وسآتي بعد أن تقول الحقيقة الكاملة على أيدي من يولد الرجال عندهم، وبالمناسبة لم أقتنع بكل ما قلته حتى اللحظة.

نزار: انتظر. انتظر أقسم أنني أقول الحقيقة.

- خرج الميجر غاضباً، وبعد بضعة دقائق دخل الوحوش الثلاثة: يوني وراني وكوبي. وبسرعة البرق أمسك يوني بأعلى قميص نزار من ناحية الرقبة ودفعه إلى الحائط وأخذ يهزه بعنف شديد أفقده التركيز وأحدث في رأسه وجسده ألماً رهيباً وهو يقول:

سأنسيك الحلب الذي رضعته من أمك، وستلعن الساعة التي رأى فيها أبوك وجه أمك.

- كان نزار لا يستطيع الصراخ مطلقاً وفجأة تدخل كوبي:

دعه، دعه يا كابتن، فنِزار لا يستحق ذلك، وهو يعرف أنَّ مصلحته في قول الحقيقة.

- جلس نزار على الكرسي مقيد اليدين إلى الخلف ثم قال:

لقد قلت الحقيقة ولم أُنقص كلمةً واحدةً وأرجوكم أن تصدقوني، أرجوكم.

- فانقضَّ عليه راني ويوني كوحشين ومدّداه على الطاولة من ناحية الظَّهر وأحضروا قيوداً إضافيةً أوصلوا بها ما بين رجليه ويديه من تحت الطاولة فأصبح ظهره في حالة انحناء معاكس، وكان يوني يجلس قرب رأس نزار الذي تدلى من الناحية الأخرى ويضع قدمه على عنقه، ويقول: ما رأيك بالشلل النصفي أيها الحشاش الذي أصبح مناضلاً؟

ردَّ راني: لا - لا، أقترح أن يكون شللاً كاملاً، لأن الشلل النصفي يمكن أن يسمح له بإنجاب الإرهابيين.

- كان نزار يصرخ بأعلى صوته ويستغيث من الألم وزاد على ذلك جلوس راني على فخذيه، فتدخل كوبي في وقت محدد:

أرجوكم، أرجوكم - أعطوه فرصةً أخرى قبل أن يصاب بالشلل، وأنا سأتكفل بأن يقول الحقيقة، أليس كذلك يا نزار؟!

صاح نزار: نعم - نعم.

- بعد أن فكوه قال:

أقسم أني قلت الحقيقة لكني لم أكن في البيت.

كوبي: وأين كنت يا نزار، تكلم قبل أن يزعل يوني وراني.

نزار: كنت عند أبي رامي في البيت ندخن الحشيش.

كوبي: ومن كان معكما في البيت؟!

نزار: كان فلان وفلان وهما من المدمنين على المخدرات.

في غرفة العمليات، كان القادة يتابعون مجريات التحقيق مع نزار ويتلقون التقارير من ساحة الاغتيال ومن المعمل الجنائي الذي بدأ يفحص كل المعطيات التي يزوده بها المحققون وأطباء التشريح الجنائي الذين بدؤوا بتشريح جثث كافة القتلى.

سأل الجنرال الذي يقود غرفة العمليات:

- لماذا الكذب يا نزار بخصوص مكانك أثناء وقوع الحادث؟!

رد الميجر عوز:

سأعتقل من كان في الشقة علّنا نصل إلى شيء معين، كما أنَّنا سنشدّ أكثر على نزار حتى نتأكد من روايته و نحاول استخراج معلومات إضافية.

قال أحد الجالسين:

لقد بدأ التحقيق يتعقد فقد وصلَنا للتوِّ تقرير من ساحة الاغتيال يقول بأن المضافة هوجمت من الخارج أيضاً حيث وجدوا آثار رصاص اخترق الجدار الغربي للمضافة وخزانات المياه الموضوعة على السطح!!

قال الجنرال وهو يضرب بيده على الطاولة:

عوز، أريدك أن تأتني باعتراف كامل من حسام، وفي أسرع وقت ممكن، ومعك كامل الصلاحيات في استخدام كل الوسائل والأساليب، فاليوم لا حدود لشيء مطلقاً، وركز على حارس والده الشخصي.

- خرج عوز مباشرة إلى مكتبه وطلب من الحارس أن يُحضر حسامًا، وبعد أن أحضر حسامًا إلى الغرفة قال الميجر بكل هدوء بعد أن طلب منه

الهدوء:

أتمنى أن تكون قد ارتحت وأكلت وفكرت أيضا ووصلت إلى أجوبة.

- حسام: ليس عندي ما أقوله لك.

الميجر: قبل أن تتسرع وتدفع ثمنا باهظا بغبائك هذا، أريد أن أُسمعك صوت شخص عزيز عليك تربطك به علاقة وثيقة، اسمع:

- فتح الميجر على شريط فيديو يعترف فيه نزار بتفاصيل موضوع المسدس.

- صُدم حسام من سرعة اعتراف نزار لكنه سرعان ما قال:

كلامه صحيح.

ابتسم الميجر قائلا: هذا بالنسبة لك أما لنا، فأنتما الاثنان تكذبان، وأعدك بأن تتمنى رؤيتي حتى تقول ما عندك، وإياك الاعتقاد بأنك ستنجو بفعلتك.

حسام : لقد قتلتم أبي وأمي، وشردتم أخوتي وفوق ذلك تتهموني بما لم أفعل ؟

اسمع أيها الصغير، أنت وكل عائلتك وكل العرب لا تساوون عندنا شعرة من رأس الجنرال، وأريد أن أخبرك بشيء مهم، إننا سنجعل بلدتك تعيش في جحيم حتى تصبح شيطاناً في أعينهم، كما أن إخوتك الصغار يخضعون للتحقيق الآن وحتى خادمتكم الفلبينية لن تسلم من ذلك، والآن انتظر الوعيد.

- خرج الميجر تاركا حساماً في معركة نفسية، إخوته الصغار، أهل البلدة، وحتى الخادمة المسكينة لن تسلم من شرِّهم، والمخفي أعظم، وبعد نصف ساعة دخل الوحوش الثلاثة وبدأوا ملحمة التعذيب بأصناف متعددة.

كانت الساعة الواحدة ليلاً عندما توالت الطرقات على باب البيت، مما دب الذعر في قلب سعاد التي أصيبت بهلع شديد وركضت باتجاه غرفة والدها الذي استيقظ أيضاً.

أبي، أبي، لقد جاءوا يا أبي، لقد رأيتهم من النافذة.

الأستاذ أحمد: اهدئي يا ابنتي وتصرفي بحكمة ولا تثيري الشكوك حولك، فأنت لم تفعلي شيئاً.

سعاد: لكني خائفة يا أبي، وأخشى أن يأخذوني.

- فتح الأستاذ الباب، واندفع الجنود إلى الداخل بصورة جنونية، فصرخ عليهم الأستاذ : أين تدخلون أيها المجانين، ماذا تفعلون هنا وماذا تريدون.

ضابط الاقتحام: أغلِقْ فمك وإلا عالجته بالرصاص.

الأستاذ: هل معكم إذن بالتفتيش واقتحام بيوت الناس وهم نيام؟

الضابط: سيد الناس والأرض ليس بحاجة إلى ترَّهاتك أيها الخَرِف، فاذهب الآن وارتدِ ملابسك، لأنك ستكون ضيفا في بيت خالتك.

بكت سعاد عندما سمعت ذلك وقالت:

أبي.

- الأستاذ: لا تجزعي يا ابنتي سأعود قريبا بإذن الله، قُلْ لنْ يُصيبَنا إلا ما كتبَ الله لنا، اتصلي بإيناس حتى تحضر عندك ريثما أعود.

الضابط: لا تتفاءل كثيراً.

وبعد نصف ساعة، أنهى الجنود عملية التفتيش بعد أن عاثوا فساداً في البيت ولدى خروج الضابط من الباب، التفت إلى سعاد وقال:

– لم يحِنْ دورُكِ أيتها الجميلة، أعِدُكِ حالَ تعاونِ أبيكِ معنا، أن لا ترَيْ وجهنا بعد اليوم، ولكنْ، قد نستضيف وجهك الجميل حتى تحدثينا عن أعز زملائك في كلية الصحافة!!

- بعد أن خرج الضابط والجنود وقد اقتادوا الأستاذ معهم، ارتعش جسد سعاد وعلى الفور اتصلت بصديقتها إيناس وهي تبكي:

لقد اعتقلوا والدي يا إيناس، لقد أخذه الكلاب مقيَّد اليدين.

إيناس: اهدئي يا حبيبتي، سيوصلني زوجي إليك الآن، وإياكِ أن تفتحي الباب لأحد.

- حاولت إيناس لدى وصولها طمْأنة سعاد بالقول:

يبدو أن الأمر اعتيادي فقد اعتقلوا جميع من له علاقة قريبة أو بعيدة

بحسام حتى إنهم اعتقلوا أبا رامي وجماعة المخدرات، فلا تقلقي يا عزيزتي

سعاد:

لكنه يعرف بعلاقتي مع حسام وذكر زمالتنا بالكلية.

إيناس: ومن في هذا العالم لا يعرف أن حسام يريدك، وفي ذات الوقت هو الوحيد من هذه البلدة الذي يدرس معك في ذات الكلية؟! لا تُحَمِّلي الأمور أكبر من حجمها.

سعاد: لكنه أبي يا إيناس، الأستاذ أحمد عاش عزيزاً والآن يقودونه بالسلاسل.

إيناس: وماذا تتوقعين من هؤلاء القتلة، الذين سرقوا أرضنا وشردوا شعبنا وجعلونا لاجئين في أرضنا، هل تتوقعين أن يَضْرِبوا لنا السلام، كما أنَّ العِزَّة يا سعاد تنعكس عندما يتعلق بالاحتلال ففخراً للمعلم أحمد الذي علَّمَنا العزة والكرامة والتمسك بالحقوق، أن يُقيَّد من قبل الأعداء.

وبينما كانتا تتبادلان الحديث على وقع دموع سعاد، رن هاتف البيت فردت سعاد:

السلام عليكم، من المتكلم.

- أبو أسيل يا ابنتي.

فانفجرت سعاد بالبكاء وهي تقول: لقد أخذوا أبي يا عم، لقد اختطفه الكلاب.

أبو أسيل: هوِّني عليك يا ابنتي، سيعود بإذن الله مرفوع الرأس كما كان دائما فلا تقلقي أبداً، فالبلدة تشهد اعتقالات واسعة، ومع ذلك فأنا الآن سأتصل بوسائل الإعلام ومؤسسات حقوق الإنسان ولن أسكت أبداً.

سعاد: شكراً لك يا عم، لقد أرحت قلبي قليلا.

- انتهت المكالمة سريعاً، بينما كانت عائلة أبي أسيل تلتف حوله وهو يتحدث مع سعاد حتى يطمئنوا عليها:

أم أسيل: مسكينة سعاد كانت تواسينا أول البارحة والآن، بحاجة إلى مواساة.

الجدة: هذا قدر شعبنا من عهد البريطانيين، الذين كانوا يساعدون العصابات اليهودية علينا، بعد أن رحلوا ورَّثوها للشياطين. لعنة الله عليهم.

أبو أسيل: ألا تخافين أن يسمعوا كلامك يا حَجَّة، فيعتقلونك آخر عمرك؟

الجدة: هذا الرأس لا يقطعه إلا الذي ركّبه، صحيح أنني عجوز، ولكني أكلت من زعتر فلسطين حتى صار لحمي وعظمي قنابل.

أم أسيل: أدامكِ الله لنا يا حجة، فمنك نستمد العزيمة.

أبو أسيل: مصائب قوم عند قوم فوائد، في بيتي نموذج العلاقة الرائعة ما بين الحماة والكنة، أدام الله وفاقكما وأراح رأسي.

رائد: ماذا يريدون من الأستاذ أحمد يا والدي؟

أبو أسيل: لقد جن جنونهم وفقدوا مجرماً كبيراً جداً، لذلك يحاولون جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، ولو كانت جانبية.

رائد: لم يلقوا القبض على حسام وبيده المسدس؟!

أبو أسيل: هذا ما قالوه في الإعلام، وليس بالضرورة أن يكون دقيقاً، فالإعلام الإسرائيلي يخضع لرقابة شديدة في قضايا الأمن ويمرر رسائل أجهزة الأمن لتحقيق أهداف معينة وهذا ما نشهده الآن.

رائد: هناك احتمال أن لا يكون حسام الفاعل ؟!

أبو أسيل: كل شيء وارد، فالقصة محيرة جداً، فأم حسام قُتِلَت وهي خارج المضافة لاستحالة وجودها هناك، وحارس أبي حسام كان مسلحاً مع أن هذا ممنوع في مثل هذه الاجتماعات، وتم اعتقال كل الذين يملكون سلاحاً في البلدة، والتحقيق مع أخوات حسام وخادمتهم، وها هم يعتقلون الأستاذ أحمد.

رائد: لقد سمعتك تتحدث البارحة مع أخت حسام.

أبو أسيل: نعم، جازفتُ واتصلت بهاتفها الخلوي الذي حصلت عليه من ابنة خالتك بعد أن خاف رئيس المجلس البلدي، وسألتها عن إخوانها وأحوال أخواتها، فقالت وهي تبكي: لقد قتلوا أمي وأبي يا أستاذ، لقد أخذوا حسامًا، وإخوتي في حالة نفسية صعبة ولقد رأوا أمي وهي مليئة بالدماء.

فسألتها بعد أن هدأتها قليلا.

وهل فعلوا معكم شيئاً؟!

قالت: لقد أرعبونا وأدخلوا الكلاب البوليسية المتوحشة حتى تفتش البيت وحقَّقوا معي وهـدَّدوني بالاغتصاب إن أخفيت عنهم شيئاً، كما أنهم حققوا حتى مع إخوتي الصغار الذين بال بعضهم على نفسه، وقد حققوا مع الخادمة المسكينة التي لولاها ما عرفنا كيف نتصرف، ولقد خربوا غرفة حسام وحطموا الجدران والبلاط وكل شيء.

أنا خائفة يا أستاذ.

فطلبت منها أن تحافظ على الجهاز الخلوي مختفياً عن أعين المجرمين، حيث ربطتها مع مرشدة نفسية أثق بها حتى ترشدها إلى كيفية التعامل مع أشقائها.

قالت أم أسيل: يا سبحان الله، بالأمس القريب كانت هذه العائلة وما يمت إليها بصلة أبغض شيء على قلبي، وها أنت اليوم تجازف لمساعدتها، وأنت لا تعرف بعدُ صورةَ ما حدث.

أبو أسيل: على الأقل كنت أعلم أن حسامًا وأمه وأخته ليس لهم علاقة بارتباط أبيهم وفي كل الأحوال، نعامل الناس بأخلاقنا لا بأخلاقهم، وتتفقين معي أن الصورة مختلفة اليوم.

الجدة: بارك الله فيك يا ولدي، فالذي عند الله لا يضيع.

- كان مركز التحقيق مَسْلَخاً حقيقاً، لا حدود للبطش فيه، حيث تعرَّض جميع الحضور يوم المضافة للتحقيق، ولم يتم العثور على شيء معهم، وبقي حسام مصراً على موقفه أنه لا علاقة له بما حدث وتوالت جولات التحقيق معه دون راحة :

كوبي: اسمع يا حسام، إذا ظننتَ بأننا لا نعرف عنك شيئاً فأنت مخطئ.

رد حسام وهو يزيح عن أنفه بقايا دم متخثر:

إذا كنتم تعرفون فلماذا تسألون ؟!

كوبي: لأننا نحب أن نتأكد من معلوماتنا من خلالك أنت، وصدِّقني إنَّ عنادك لن يفيد.

راني: لم أكن أعلم أنَّ لك شقيقة جميلة، صاحبة قوام رشيق وعيون عسلية لا مثيل لها ولديها اث.....

حسام: اخرس يا سافل ولا تأتِ على ذكر أختي على لسانك.

راني: لكن صدقني أنها فاتنة فهل تسمح لي باصطحابها بضع ساعات؟!

يوني: ربما يود حسام أن يتحدث معها أولاً حتى يرشدها إلى كيفية التعامل معك، فهي لا زالت ابنة السابعة عشرة، ها، ما رأيك بأن تخرج للغرفة المجاورة للحديث معها؟!

- صمت حسام وكأن صاعقة نزلت على رأسه وسرعان ما قال:

تستطيعون فعل أي شيء ولكنكم لن تستطيعوا إرغامي على قول شيء لم أفعله.

- فانقض يوني عليه كالوحش وضغط على قيود القدمين واليدين حتى شعر حسام كأنها ستقطع، قائلا:

تكلم أيها الحشرة، من الذي أمرك بقتل الجنرال ؟ تكلم.

- ومن شدة الألم صرخ حسام الذي لم ينم منذ يومين سوى القليل:

سأعترف، سأعترف، أرخوا القيود، أرخوا القيود.

يوني: تكلم أولا، أعطني اسماً، أعطني اسماً، هيا، وإلا قطعتك نصفين.

حسام: فتحي حسن. فتحي حسن.

يوني: أين هو وماذا يعمل؟

حسام: إنه، إنه، من بيت لحم، فكوا القيود، فكوا القيود.

- فكوا القيود ولقد ارتسمت على وجهوهم علامات الراحة، في حين أن حسام بقي على الأرض وقد سالت الدماء من يديه وقدميه، وفي ذات اللحظة انتفضت غرفة العمليات التي تراقب التحقيق.

الجنرال: افحصوا الاسم فوراً على الكمبيوتر، أريد تقريراً عاجلاً الآن عن هذا الشخص.

أحد الضباط: سيدي الجنرال، الكمبيوتر يقول بأن هذا الاسم ميت منذ عشرين عاماً، وأن الأسماء المشابهة معظمهم أطفال صغار.

ضرب الجنرال على رأسه وقال: ألم تخرج نتائج التشريح بعد؟! ألم ينتهوا من تقرير المختبر الجنائي ؟ ما هذا الكسل؟!

- رد الضابط المسؤول عن ذلك:

بخصوص التشريح يا سيدي، فقد أخرجوا الرصاصة من رأس الجنرال، وكذلك من رأس حارسه، ويعمل المختبر الجنائي الآن على معرفة مصدر الرصاص، حيث يوجد مسدَّسَا حسام وحارس أبيه، كمشتبهين أساسيين، إضافة إلى مسدسات الحراس التي كانت تطلق النار، كما أن الرصاص أُخرج من القتلى والجرحى المتبقين.

الجنرال: وهل توصلتم إلى شيء بخصوص النار التي أطلقت من خارج المضافة ؟

الضابط: جميع أجهزتنا يا سيدي تعمل على ذلك، وقد وسَّعنا دائرة الاعتقالات المحددة والعشوائية حتى نصل إلى طرف خيط.

علم يوني ومن معه أن حساماً يكذب، ومع ذلك لم يبلغوه:

كوبي: قل لنا تفصيلات معرفتك بهذا الشخص وإلى أي تنظيم ينتمي؟

حسام: أريد الميجر عوز.

كوبي: وما علاقة الجواب بذلك ؟

حسام: لقد وعدته أن أعطيه اعترافي.

- وفجأة دخل الميجر عوز وطلب من الجميع الخروج وقال :

- تكلم يا حسام، وكلّي آذان صاغية ولكن تذكر أنني سأذهب للبيت بعد قليل، حيث سأذهب مع زوجتي وابنتي إلى البحر وتمنيت لو كنا أصدقاء حتى تأتي معنا !!

حسام: لقد دفعوني للكذب، فأنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم ولم يسبق لي أن ذهبت إلى بيت لحم.

الميجر: لكنك ذهبت إلى غزة !!

حسام: وما علاقة غزه بذلك، فلقد ذهبت كمساعد صحفي.

الميجر: ونسقت كل العملية هناك وأحضرت تذكاراً معك حتى لا تتراجع !!

حسام: لا أعرف عن ماذا تتحدث.

الميجر: بل تعرف، أليس فردة الحذاء هذه التي صنعت في خانيونس تعود لك ؟!

- صمت حسام صمتاً يكتنفه الغضب ونظر إلى الميجر وقال:

هل اقتناء الأحذية ممنوع ؟!

الميجر: لا ولكن ما يقف وراءها جريمة ممنوعة وستشرحها لنا، عفواً ستشرحها ليوني وإخوته، وداعاً أيها البطل، ستصبح بطلاً بعد قليل.

- دخل الثلاثة للغرفة وبدأوا صنوف العذاب مجدداً بينما توجه الميجر إلى غرفة القيادة التي استدعته على عجل:

الميجر: تحياتي سيدي الجنرال.

الجنرال: اذهب فوراً إلى نزار وأشرف على التحقيق معه وتأكد من صحة المعلومات الخطيرة التي أدلى بها أصدقاؤه في شقة أبي رامي، أريدك أن تجعله يتكلم أولا.

الميجر: أمرك سيدي، الآن اسمح لي بالانصراف.

دخل الميجر إلى الغرفة التي يلقى فيها نزار صنوف العذاب، وأمر المحققين بالخروج.

الميجر: ها – هل وصلت إلى قناعة بأنك يجب أن تقول الصدق أم لا؟!

لم يستطع نزار الرد للوهلة الأولى بسبب التعب لكنه سرعان ما قال:

لقد قلت ما عندي وليس لديّ ما أضيف.

الميجر: لكن أبا رامي وزميليك المدمنين قالوا!!

نـزار: لقد قلت لكم قبل أن يقولوا أننا كنا معاً في قمة الانبساط والتحشيش.

الميجر: لكنهم غاضبون منك لأنك لن تنظف رشاش العوزي بعد الآن!!

صمت نزار وقد صدمته الكلمات، حيث كان يعرف أنها مسألة وقت ثم قال:

أقسم أنني لم أكن أقصد، لقد كان خطأ غير مقصود، أقسم على

ذلك.

الميجر: تقصد ماذا وأي خطأ ذلك؟!

نزار: لقد كنت مسطولاً أصوب رشاشي نحو نافذة المضافة المغلقة بطوب رقيق وأمزح بإطلاق النار من فمي، لكن إصبعي كان على الزناد، أقسم أنني لم أقصد.

الميجر: أكمل. أكمل، أنا أصدقك.

نزار: وفجأة هجم علي أبو رامي لأنني لم أسمع كلامه بالانتهاء عن ذلك المزح، ثم- - -

الميجر: ثم ماذا، أكمل الحديث.

نزار: دفعني من الخلف بقوة، فضغطتُّ على الزناد دون أن أشعر، فخرجتْ صلية من الرصاص باتجاه المضافة، ولم ندرِ ماذا حصل بعدها.

الميجر: وأين الرشاش الآن؟

نزار: إنه في مطبخ البيت تحت البلاطة الواقعة بالقرب من كيس الطحين.

الميجر: اسمع يا نزار، أقسم إن كنت كاذباً لترى ما لم تراه في حياتك.

نزار: أنا مستعد لكل شيء تريدونه، لكنني لم أقصد قتل الجنرال.

الميجر: الرصاص الذي كان داخل العوزي، هل هو أصلي أم رصاص ٩ ملم الذي نستخدمه للمسدسات؟

نزار: هو للمسدسات.

الميجر: اسمع يا نزار، تعلَم أننا تأكدنا مما تقول، ولكننا كنا مضطرين لسماعك تتحدث حتى نطمئن أكثر، والآن، سيأتي شرطي حتى يكتب إفادتك، بعدها ستذهب للزنازين حتى ترتاح وبعد أيام ستذهب للسجن وأتمنى لك إقامة قصيرة.

نزار: وهل سأبقى كثيراً في السجن؟

الميجر: هذا عمل المحكمة، وتأكد أنها لن تظلمك، وإذا لزم الأمر سآتي للشهادة لصالحك.

- أنزل السجَّان نزار المنهك والمتورم الأطراف إلى الزنازين حيث نزل إلى الطابق الأرضي ودخل من باب الكتروني وقف خلفه سجان جهم يتعامل بخشونة، حيث سلمه نزار وذهب، نظر السجان إلى نزار وقال بلكنة عربية ثقيلة جدّاً:

اتبعني ولا تتحدث بكلمة واحدة وإلاّ قطعتُ لسانك.

- كان السجان يحمل المفاتيح بيده ويسير في ممر طويل وموحش ومليء بالأبواب التي كانت مطلية بلون غامق يشبه لون الجدران، وفجأة فتح أحد الأبواب ليظهر بعدها مدخل صغير وبداخله بابان، حيث فتح أحدهما ودفع نزارًا إلى داخله ثم أغلق الباب وذهب.

نزار: رحمَ الله أيام العز، وأخيرا تشرفنا بالتعرف على سيدة زنزانة بوسائلها الترفيهية، مساحة ضيقة جداً، وضوء خافت يتوسط سقفاً منخفضاً، وفرشةً باليةً يزيّنها غطاء نتن، ما أجمل الترفيه إذا ما قورن

بجحيم يوني وأعوانه.

- ألقى نزار بجسده المنهك على الفرشة وما هي إلا لحظات حتى سمع قرقعة الأبواب وصوت السجان يدفع أحدهم داخل الزنزانة المجاورة ويذهب:

نزار: هل يوجد أحد هنا.

رد الجار بسرعة: نعم - نعم السلام عليكم، أنا هنا.

نزار: من أين أنت يا عم.

الجار: أنا من قباطية، قضاء جنين، أعتذر لك يا بني لأنني أريد قضاء ما فاتني من صلوات أثناء التحقيق وأنا متعب جداً فاعذرني.

نزار: خذ راحتك يا عم، أعانك الله.

وقف الميجر عوز قريباً من مكان جلوس الأستاذ أحمد الذي كان مقيد اليدين والقدمين ومربوطاً بالكرسي وعلى رأسه كيسٌ يمنعه الرؤيا، وكان ذلك في الممر الطويل الذي يواجه غرف التحقيق المحكمة الإغلاق:

الميجر: كيف ترى الشَّبْحَ على الكرسي يا أستاذ أحمد؟

الأستاذ: الحمد لله إنني أشعر به ولا أراه وبالتالي لا أرى غيره!!!

الميجر: إذاً صحيحٌ ما قالوه لي بأنك سليط اللسان.

الأستاذ: مهمتي أن أربّي الأجيال في الضوء أمّا الظلام فهو مهمة حماري.

الميجر: أقترح أن تتوقف عن الهراء وتؤجل الحديث إلى غرفتي لنرى ما يكون منك.

- فكَّ السجان قيود الأستاذ وبعثه إلى غرفة الميجر وكان لا يزال معصوب العينين مقيد اليدين للخلف، نزع الميجر الكيس عن رأس الأستاذ:

الميجر: تفضل بالجلوس

الأستاذ: القيود لا تسمح بذلك وأنا رجل كبير.

الميجر: عفواً، عفواً للكبار حقوق ولكن في ذات الوقت عليهم واجبات، أليس كذلك يا أستاذ؟! ومع ذلك سأفك قيدك بنفسي.

الأستاذ بعد أن جلس على الكرسي:

ماذا تريدون مني.

الميجر: أنت رجل ذكي وتعلم تماما أنَّنا نعرف عنك كل شيء، فلقد تابعنا تنظيرك السياسي منذ سنين بعيدة.

الأستاذ: لم تأتِ بجديد.

الميجر: لا تستعجل يا أستاذ، فلقد خرجتَ الآن عن النص وتعرف تماما ما أقصد.

الأستاذ:الحمد لله أنني لست إلهًا حتى أعلم الغيب.

الميجر: بل تعرف الكثير الكثير. ستقوله الآن أو بعد مئة يوم.

الأستاذ: إذاً عليك أن تنتظر مئة يوم أخرى...

بعدها يأتي الميجر.

الميجر: إذاً دعك من الجدل العقيم وقُل لي باختصار، ماذا قال لك حسام عندما تحدث معك قرب المضافة وأنت ذاهب إلى الحقل؟

الأستاذ: سأل عن صحة حماري.

الميجر: أحذرك من أسلوبك هذا فأنا غير مضطر لسماعك، بل هناك من يتوق لانتزاع الكلام من فمك!!

الأستاذ: اقتحمتم بيتي وعثتم فيه الفساد، وروعتم أهلي واعتديتم علي، وتريد مني التحدث معك باحترام؟!

الميجر: أنت تعرف ما حصل في بلدتكم ولا حاجة لذكر هذه الأمور الصغيرة مقابل ما فقدناه.

الأستاذ: أنا لن أجادلك في ما تقول ولكنني أتحدث مع كل أبناء القرية وليس مع حسام فقط، فهم أبنائي قبل أن يكونوا تلامذتي.

الميجر: ألم يفاتحك بأي شيء كان، ألم يُشِرْ إليك بأية إشارة؟!

الأستاذ: لا، وأنا لست مستعداً لسماع ما تقصد.

الميجر: وما علاقة حسام بابنتك سعاد؟!

الأستاذ: إنهما زميلان في الجامعة وأبناء بلدة واحدة.

الميجر: يؤسفني إخبارك أنك أبٌ أحمقٌ لا تدري ما يدور خلفك.

الأستاذ: احفظ كلامك وإلا أغلقت فمي عن الكلام.

الميجر: لا تعرف أنهما مغرمين ببعضهما البعض؟

الأستاذ: هذا شيء لا يعنيك مطلقاً.

الميجر: ويذهبون إلى أماكن لا تحبها!!

الأستاذ: عندنا مثل يقول «الذي في بطنه عظام تكركع»!!

الميجر مستفَزًّا: ماذا تقصد أيها العجوز الخرف، لا تتحدث بلغة لا أفهمها.

الأستاذ: إذاً احترِم ألفاظَك وإلا تحدثتَ بعد الآن مع صخرة صماء.

الميجر: لقد كان حسام يتردد عليك في بيتك وأنت من القلائل الذين كان يقصدهم فما سِرُّ هذه العلاقة الوطيدة؟

الأستاذ: بيتي مفتوح لكل الناس وأولهم تلاميذي، فهل تريد مني عدم استقبالهم.

الميجر: نريد منك أن تساعد حساماً وترفع عنه التعذيب، وإلا فقدتَ صهرك المستقبلي إلى الأبد فما رأيك؟!

الأستاذ: وماذا تريد مني أن أفعل؟

الميجر: فقط بأن تقنعه بقول الحقيقة، وسأرتب لذلك حلاً.

- غادر الميجر الغرفة تاركاً الأستاذ وحدَه، وبعد لحظات معدودة، أُدْخِل حسامٌ إلى الغرفة بعد أن نُزِع عن رأسه الكيس وذهب.

حسام: السلام عليكم يا أستاذ، ماذا تفعل هنا، ما الذي جاء بك إلى

هذا المكان؟

الأستاذ: اجلس، اجلس يا بني، لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا فعلوا بك؟

حسام وهو يسلم على الأستاذ بقوة:

الذي تراه يا أستاذ، لكن هذا ليس مهما، المهم هل آذوك أنت؟

الأستاذ: يؤذوننا منذ ستين عاماً وأكثر فلا تقلق يا بني.

حسام: لكنَّ الأذى في هذه المرَّة كبير يا أستاذ أحمد.

الأستاذ: أعتذر لك يا بني فقد أنساني ما تعانيه أن أعزِّيك بوفاة والدَيْك.

حسام: وفوق كل هذا يريدون أن يُلبسوني تهمة لم أفعلها.

الأستاذ: ما دمت تقول الحقيقة فاثبت عليها يا ولدي.

- على الفور اقتحم الميجر عوز وبعض الحراس المكتب وجرُّوا حسامًا إلى الخارج بوحشية وذهبوا إلى جولات التعذيب، أما الأستاذ أحمد فقد بدأت معه مرحلة جديدة: الميجر وهو يمسك بلحية الأستاذ:

- تحرضه على عدم الكلام أيها المأفون؟

- الأستاذ وهو يتألم: لقد طلبت مني دفعه لقول الحقيقة ففعلت.

- الميجر: ستعرف الآن بعض الحقائق من خلف الشمس حتى تُحَدِّثها لأصدقائك في الجحيم.

- وما هي إلا لحظات حتى دخل ضابطان للتحقيق مع الأستاذ أحمد

ولكن بأسلوب عنيف شبيه بالذي يحدث مع حسام وحصل مع نزار.

❖ ❖ ❖ ❖

كانت البلدة تعيش لليوم الرابع في ظل حظر التجوال، وقد تعطلت الحياة بالكامل والشوارع خالية إلا من الكلاب والقطط ودوريات الشرطة الإسرائيلية، وبقيت الهواتف الوسيلة الوحيدة لتواصل الناس، إلا أن إيناس وسعاد كانتا معا.

إيناس: هل كنت تتوقعين أن يقوم حسام بعمل كهذا؟

سعاد: على افتراض بأن حساماً قام بذلك، فإنَّه لا يقل وطنية عن أي واحد فينا.

إيناس: يا سعاد، أرجوك أن تكوني واقعية ولا تتحدثي عن الوطنية وكأنها في كل بيت، إلا إذا كنتِ تقصدين لغتنا العربية التي تكسرت بفعل الكلمات العبرية التي نحشوها أثناء حديثنا.

سعاد: أعرف يا إيناس أن الكثير منا يعيش أزمة هوية، فلا هو قادر على القول بأنه عربي فلسطيني وحسب ولا أنه إسرائيلي بحكم الجنسية الإسرائيلية التي يحملها رغماً عنه.

إيناس: لو وقف الأمر على الجنسية، لقلنا بأنها الشيء الوحيد والقانوني الذي يمنع الصهاينة من طردنا من أرضنا كما فعلوا ببقية أهلنا عام٤٨ ولكن المصيبة أننا نذوب في ثقافة المحتل وعاداته، والأنكى

من ذلك دخولنا في أحزابهم الصهيونية.

سعاد: لا تستطيعين لوم الناس يا إيناس، صحيح أنه لا عذر لشخص يدخل حزباً صهيونياً، لكن الناس تلحق لقمة العيش، وينتج عن ذلك بعض ما ترينه من عادات دخيلة على مجتمعنا الفلسطيني.

إيناس: من المسؤول عن ذلك، من يتحمل وزر عشرات الآلاف من العمال العرب الذين يعملون في مصانع الصهاينة ويشكلون اليد العاملة الرخيصة؟!

سعاد: أقرأ ما تفكرين به، لكننا لا زلنا نقنع العالم العربي أنَّنا فلسطينيون حتى النخاع، فهل تريدين منهم أن يدعموا اقتصادنا المحلي؟ عليهم أولا أن يغيروا ما برأس الكثير منهم عنا حتى يساعدونا.

إيناس: ألم يروا الشهداء الثلاثة عشر مطلع انتفاضة الأقصى، ألا يسمعون ما جرى في بلدتنا؟، ألا يعلمون أنَّنا ثبتنا على أرضنا رغم كل إغراءات التهجير؟

سعاد: أعترف أن الصورة بدأت تتغير شيئاً فشيئاً، ولكن المعركة الحقيقية هنا في عقولنا ووجداننا، في تطور وعينا تجاه ما نريد وما ينبغي أن يكون.

إيناس: وهل شعرت أن حسام تطور وعيه إلى الدرجة التي دفعته لما فعل؟

سعاد: حسام إنسان نقي السريرة،استطاع أن يميز نفسه عن أبيه،

حيث لم تشفع له ولنا الجنسية الإسرائيلية التي ترمز لكامل حقوق المواطنة، بل أثقلت على نفوسنا، فمن ناحية، يزعم الصهاينة أمام العالم أن دولتهم ديمقراطية تعتمد المواطنة أساساً للتعامل مع أبنائها، وندخل نحن ضمن هذا التعريف فلا يجوز أن تحمل الجنسية الإسرائيلية ولا تقول بأنك غير إسرائيلي. ومن ناحية أخرى، يتعاملون معنا بأدنى مستويات المساواة، بل بأقصى حالات العنصرية، وأبرزُها يهوديَّةُ الدولة، لهذا عندما ذهب حسام إلى الجامعة اكتشف ذلك بنفسه.

إيناس: وكيف تقاومون ذلك في الجامعة؟

سعاد: هذه النقطة جعلتني أحترم حسامًا وأرى فيه النموذج الذي أُحِبُّ أن يكون عليه شريك حياتي.

إيناس: بدأنا الاعتراف، تحدثي يا حبيبتي.

سعاد: في إحدى الغارات الجدية على قطاع غزة، استشهد شاب وزوجته وطفلتهما عندما كانوا في سيارتهم، وقد أُثير ذلك في الإعلام، وعلى إثر ذلك قرَّر الطلاب العرب في جامعة حيفا أن يخرجوا في مسيرة احتجاجية داخل حرم الجامعة رغم رفض إدارة الجامعة لذلك، وأثناء الاحتجاج السلمي خرج الطلاب الصهاينة أضعافَ أضعافِنا ضد احتجاجنا، وحاولوا تمزيق لافتاتنا وتحديداً إحدى اللافتات التي كنتُ أحملها.

سعاد: حاولنا الدفاع عن أنفسنا ولكنَّ ما جرى أنَّني تفاجأتُ بحسام

يدفع صهيونيا حاول ضربي من الخلف، فأعجبني تصرفه الذي شكرته عليه.

إيناس: وماذا أجابك؟

سعاد: لم يتكلم بكلمة واحدة فهو إنسان خجول، لكنني تصادفت معه في الكفتيريا وقلت له: أرجو أن لا يكون دفاعك عني كوني ابنة بلدك وابنة أستاذك، فهذا الشيء يسوءني؟!

إيناس: فعلًا أنَّك جاحدة ولا تعرفين طريق اللطافة والرقة.

سعاد: أردت أن أستثير فيه الوعي بقضيته قبل أن يذهب فكره إلى الذي تفكرين به.

إيناس: وماذا كان جوابه؟

سعاد: قال بثقة كاملة واحترام أكبر، صحيح أنني أحرص على ابنة أستاذي وبلدتي، لكنكم الثلاثة جزء عزيز من وطني وقضيتي.

إيناس: الله، الله على الكلام الجميل والذكي.

سعاد: احمر وجهي وشعرت أني طفلة صغيرة تحبو على يديها، ومن تلك اللحظة أصبح شقيق الفؤاد بلا منازع، ولم يفوّت أي مناسبة وطنية أو مظاهرة وحتى أي نقاش مع الصهاينة إلا وكان الأول فينا.

إيناس: ألم يفاتحك بحبه، أو حتى بشيء من هذا القبيل؟

سعاد: طوال السنتين الماضيتين لم يسمح لنفسه أن يخون ثقة والدي به حسب تفكيره إنما في الأشهر الأخيرة، على الرغم من كوننا في كلية

واحدة وجلوسنا أحيانا في قاعة محاضرات واحدة، إلا أنه اختار ورقة صغيرة لإخباري بشيء.

إيناس: ما هو أيتها الشريرة؟

سعاد: قال بأنه يحترم عقلي وأخلاقي، ويراني الإنسانة المناسبة له، ويطلب رأيي في إرسال أهله حتى يخطبوني من أبي، وأن إجابتي بالرفض لن يترتب عليها تغيّر معاملته معي.

إيناس: حسام هذا، يحمل هذه الرقة والرزانة؟! سبحان الله، يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

سعاد: استغفري الله يا إيناس فالعم أبو حسام قد مات.

إيناس: لقد نسيت، أخبريني الآن ما قلتيه له؟

سعاد: ذهبت إليه مباشرة وقلت له، لستَ بحاجه إلى ورقة يا حسام، تصرفك هذا يجعلك كبيراً في عيني أبي، ولكن يجب أن أبلغ أبي حتى أعرف رأيه، فأنا لا أخفي عنه شيئاً، فهو صديقي قبل أن يكون أبي، والثقة التي وضعها بي تفرض عليَّ استشارته أولا.

إيناس: يا حبيبتي، أيوجد في هذا العالم هذه الطريقة المثالية في الحب وبالأخص عندنا نحن عرب الثمانية والأربعين الذين ندرس عند اليهود ونخالطهم ونتشرب عاداتهم؟ قولي لي، ألم تتحدثا عن الحب؟

سعاد: مفهوم الحب لدينا أرقى مما تتصورين، يتجاوز الكلمات المستهلكة، يتجاوز الحد الذي يأسر الناس، يتجاوز تسبيل العيون.

إيناس: نورينا يا فيلسوفة زمانك.

سعاد: عندما كنت أشعر بطيفه يقترب إلى قاعة المحاضرات، كان قلبي يخاطب قلبه وثغري يناجي ثغره، كنت أهمس في أذنه دون أن أتكلم معه ويهمس في أذني دون أن ينظر إلي، كنا معاً ومعاً كان يأسرنا الوفاق الروحي ماذا أقول لك؟! وكيف أشرح؟!

إيناس: سعاد!! أكل هذا العشق والهيام دون حديث الحب المباشر؟

سعاد: دعينا من هذا الكلام ولنفكر بمصيبتنا، فأبي والحبيب هناك.

إيناس: رُبَّ ضارةٍ نافعة، فحبيب القلب سيطلبك من أبيك على شرف الشَبْحِ والزنازين.

سعاد: فعلاً إنك مجنونة أو على وشك الجنون.

إيناس: بل قولي أنها الحقيقة التي يجب أن تتعاملي معها بشجاعة وصبر مع قليل من المزاح حتى لا يحقق المحتل ما يصبو إليه.

طلبَتْ غرفة العمليات عقد اجتماع عاجل لسماع تقرير المختبر الجنائي ومركز التشريح وذلك في ساحة الاغتيال حتى يقوم المحققون على الأرض بشرح رؤيتهم وفق التقرير والنتائج التي توصَّلوا إليها وفي ظل المعطيات التي توفرت من التحقيق وخصوصاً من نزار حيث لا زال حسام

صخرة صمَّاء لم يستطيعوا انتزاع شيء منه.

- بدأ الضابط المسؤول عن التحقيق في ساحة الجريمة إعطاء الصورة الأولية للحضور: لقد حصَرْنا جميع الرصاص الذي تم إطلاقه يوم الحادث، وتم مواءمته مع الأسلحة التي أُطلقت كما أنَّنا استطعنا معرفة الجهة التي بدأت بإطلاق النار!!

الجنرال: هل كان حسام أم حارس أبي حسام؟!

الضابط: لا يا سيدي!! كانت الشقة التي تواجد فيها نزار حيث استطعنا عبر التحقيق مع السكان ومن خلال إصابة محول الكهرباء الرئيسي بطلقة طائشة، معرفة الوقت الدقيق بالضبط ولكن !! لم تكن هي الرصاصات التي أصابت الجنرال وحارسه، بل كانت إشارة البدء لتنفيذ الاغتيال حيث أثارت الفوضى في المكان.

الجنرال : إلى من تعود الرصاصة التي قتلت الجنرال؟

الضابط: هنا تكمن المشكلة والعقدة العويصة حولها بأننا لم نجد الظرف الفارغ للرصاصتين اللتين قتلتا الجنرال وحارسه، رغم أن مسدس حسام ينقص رصاصتين، وعليه بقايا غبار الكحل، إلا أننا لم نستطِعْ معرفة زمن الإطلاق بالضبط، وسيكون علينا الآن أن نجد الظرفين الفارغين؛ لأنه بدونهما سيكون من الصعب الحسم بأن حسام هو المطلق.

الجنرال: ما هو التصور البديل لديك؟

الضابط: إذا لم نستطع انتزاع اعتراف من حسام علينا الافتراض بأن أحداً ما خارج المضافة قد أطلق النار إلى داخلها، وبهذا تكون خطة الاغتيال قد أُعِدَّتْ على أعلى مستوى.

الجنرال: كيف ذلك.

الضابط: يقوم نزار في لحظة الذروة من النقاش بإطلاق الرصاص، عندها بالضبط يطلق القناص النار على الجنرال، وفي الوقت الذي يتواجد فيه حسام في المكان بمسدسه دون استخدامه بل لتعطيل التحقيق ريثما يتم انسحاب القاتل وتطهير المكان من الآثار، وفي النهاية لن نستطيع إثبات شيء عليه.

الجنرال: وأين تتوقع المكان الذي اختبأ فيه القناص؟

الضابط: كما تعلم يا سيدي فإنَّ أقصى مدى لأفضل نوع للمسدسات لا يتجاوز عشرة أمتار والتقدير لدينا أنه اختبأ على بعد ما بين عشرين إلى أربعين متراً، وبهذا حصرنا مكان الإطلاق في جهتين الأولى عبر مدخل المضافة والثانية عبر مطبخ البيت !!

الجنرال: وهل أجريتم التحقيقات اللازمة ؟

الضابط: نعم يا سيدي، وقد استبعدنا مدخل المضافة لوجود الحراسة المشددة عليه التي كانت ستلحظ أية عملية إطلاق نار وبقيت ناحية المطبخ، حيث أجرينا تحقيقاً مع كل سكان البيت ولم نستطع التوصل لشيء.

الجنرال: قلتم بأن أم حسام قُتلت في المطبخ؟

الضابط: نعم يا سيدي، لقد أصيبت برصاصة واحدة اخترقت الجدار ومن ثم ظهرها ولكنها ماتت بسكتة قلبية وبعد أن مشت عدة خطوات.

الجنرال: ومن الذي أطلق الرصاصة هذه؟

الضابط: هي من مسدس حارس الجنرال الذي قتل مع الجنرال.

الجنرال: من الذي أصيب أولاً الجنرال أم الحارس؟

الضابط: وفق التحليل الجنائي الجنرال أولا!!

الجنرال: يعني بأن الحارس رد على مصدر الرصاصة الأولى فأصيبت أم حسام لكنه كان ضحية الرصاصة الثانية التي أطلقت من شخص آخر كان في المطبخ، ويتخذ مكانا جيداً، إذاً أريد أن تفتحوا مركز تحقيق في بيت أبي حسام وتحققوا مع الرضيع قبل الكبير، وأريد طاقم تحقيق جنائي جديد يبحث حتى عن نسمة الهواء التي كانت وقت الحادث، أما أنت يا عوز، فأريد منك أن تضغط أكثر على حسام ونزار.

عوز: خطة التحقيق تسير وفق إرشاداتكم يا سيدي، وسوف نفعل ما تريدون حالاً.

كان مركز التحقيق في «بتاح تكفا» قد استقر تركيزه على حسام بالدرجة الأولى والأستاذ أحمد ونزار بالدرجة الثانية.

يوني وهو يبصق في وجه حسام بشكل متواصل.

ما رأيك في طعم البصاق اليهودي؟ ألا ترى أنه بنكهة فاخرة؟

- بقي حسام صامتاً وهو يجلس على الكرسي مقيد اليدين والرجلين.

يوني: ألا تجيب أيها النتن العفن؟

راني: لا تآخذه يا يوني فالقرف والنتانة سمتان يتصف بهما العرب.

- ابتسم حسام ابتسامة صفراء فلما رآه راني قال :

على ماذا تبتسم يا ابن (.....) التي أنجبتك في الشارع؟

- لم يجب حسام مما دفع يوني لنتف الشعر من شاربه:

هذه الشعرة لأنك ابتسمت وهذه الأخرى لأنك صامت والثالثة لأنك عربي والرابعة لأنني سألعن الساعة التي جئت بها إلى هنا.

ودفعه إلى الأرض وهو يركله بقدمه ويصرخ كالمجانين:

سأقتلك، سأقتلك، سأنزع من روحك الحياة!!

- عندها قام راني وكوبي بتهدئة يوني الذي فقد أعصابه، وفي الوقت الذي كان فيه حسام وقد تخدر جسمه من التعذيب وتعود على ذلك طيلة الأيام السابقة، ويسرح في الكلمة الأخيرة التي قالها يوني، «الحياة» حيث عاد به شريط الذكريات لغزّة ونقطة البداية:

حسام وهو يتحدث مع طاقم الكفرة الأجنبي الذي اختاره حتى يكون مترجماً لهم في غزة:

أهذا الفندق الشعبي جداً محمي من القصف الإسرائيلي؟

المراسل: يجب أن نكون قريبين من مركز الأحداث حتى ننقل الخبر بأقصى سرعة ممكنة.

حسام: وهل يستحق الأمر أن نعرض أنفسنا للخطر في هذا المكان الخطير؟

المراسل: أنا أستغرب منك!! أنت عربي أم ماذا ؟ فلقد أتيت من بريطانيا وأنا لست عربياً حتى أغطي ما يفعله الإسرائيليون في غزة وأنت هنا خائف؟!

ولماذا تعلمت الانجليزية في المعهد البريطاني في حيفا لمدة ثلاث سنوات قبل دخولك الجامعة ؟ أمن أجل الفتيات الإنجليزيات ؟ أم من أجل شعبك؟

حسام: مهلاً مهلاً أيها المراسل «الفلسطيني - البريطاني» أنا فقط أبحث عن سلامتك، والآن اسمحوا لنا بالنوم على وقع درسك الذي أحترمه بصدق.

- ضحك الجميع وناموا وفي الساعة الثانية صباحاً، انتفض الجميع بصورة جنونية على وقع انفجار رهيب لم يسمع أحد من الحضور مثيلا له، وعلى الفور قال حسام هيا يا جماعة، حَضِّروا أنفسكم لمشاهدة ما جئتم لرؤيته.

- انطلقوا باتجاه موقع القصف الذي كان في حي الدرج في غزة، حيث كانوا من أوائل الناس الذين وصلوا، لكنهم وقفوا مندهشين.

المراسل: يا الله، ما هذا الذي يحدث، عمارة كاملة على الأرض أين نحن؟

حسام: لا تتحدث أيها الأجنبي لا تتحدث، صوِّر لحكوماتكم وشعوبكم.

- واندفع حسام مع الناس باتجاه الركام حتى يساعد الجرحى تاركاً وراءه طاقم التصوير، وبدأت المشاهد المروعة تظهر تباعاً أمام ناظريه حيث أشلاء القتلى من النساء والأطفال، مما أقعده بين الركام باكياً:

يا الله، يا الله، نساء وأطفال، ماذا فعلوا، ما ذنبهم، ما جريمتهم.

- وبينما كان ينوح كالثكالى فاقداً التركيز فإذا بصوت أنين خفيف جداً ينبعث من تحت الركام القريب من مكان جلوسه، فأسرع كالمجنون صوب الصوت وأخذ يحفر بيده:

يا رب، يا رب، ساعدني يا رب إنه صوت طفل، إنه صوت طفل، أيها الناس.

فاجتمع الناس لمساعدته بأيديهم حتى وصلوا لمصدر الصوت، فإذا بها طفلة رضيعة تصدر صوت الاحتضار، وقد كانت مهشمة في كال أنحاء جسدها الطري الصغير فأمسكها حسام بين ذراعيه وأسرع نحو السيارة وهو يبكي: انتظري يا حبيبتي انتظري يا حبيبتي سنصل المستشفى الآن.

- وطارت سيارة خاصة نحو المستشفى وهو لا يزال يحتضنها ويحاول تنظيف فمها من التراب ويردد باكيا:

استيقظي يا حبيبتي، لا تذهبي أرجوك، اصمدي يا حبيبتي.

- وفي المستشفى انقطع تنفس الرضيعة التي كانت مليئة بالدماء، فالتقطها المسعفون من بين أحضانه فلحق بهم كالمجنون قائلا:

أرجوكم دعوني أدخل، دعوني أدخل، أستحلفكم بالله.

- ظنوا بأنه قريب فسمحوا له بالدخول، والوقوف إلى جانب الطبيب الذي كان يحاول إنعاشها ولكن، كانت قد فارقت الحياة منذ دقائق.

حسام: إنها رضيعة صغيرة، أرجوكم لا تجعلوها تموت، لا تجعلوها تموت.

- وفقد الوعي وهو في حالة هستيرية ليصحو في اليوم التالي وسائق السيارة الذي أوصله ليلة الأمس مع الرضيعة يقف إلى جانب رأسه رافضاً مغادرته.

السائق: حمدًا لله على سلامتك يا حسام، لقد قرأت اسمك في الهوية، وطاقم التلفزيون الذي جاء معك يسلم عليك.

حسام: أين الرضيعة، أين ذهبوا بها؟

السائق: إنها في ثلاجة المستشفى مع خمسة عشر طفلاً استشهدوا في غارة إضافة إلى مجموعة من أهاليهم.

حسام: ولماذا قصفوا البناية وهم يعلمون بوجود المدنين والأطفال؟

السائق: لقد كان فيها الشيخ صلاح شحادة قائد كتائب القسام، الذراع العسكري لحركة المقاومة الإسلامية «حماس»، وقد استشهد مع زوجته.

حسام: الله أكبر، يقتلون الأطفال ونساء المدنيين من أجل شخص واحد؟

السائق: يبدو أنك لا تعيش في فلسطين يا بني.

حسام: أستحلفك بالله أن تأخذني لرؤية الطفلة.

السائق: انهض معي الآن وسأريك ما تريد.

- وقف الاثنان أمام الثلاجة بينما كان الناس يتجمهرون حول رجل واحد.

حسام: من هذا الرجل؟

السائق: لقد فَقد ثلاثة من أطفاله أحدهم الطفلة التي تريد رؤيتها.

- ذهب السائق وأخبر الوالد المفجوع عن حسام وما فعله مع ابنته وماذا يريد.

حسام وهو يبكي: عظَّم الله أجركم يا سيدي.

الأب المفجوع: إنهم مجرد أطفال نيام، لم يفعلوا شيئا لأحد، ليتني كنت معهم ولم أذهب للعمل، تعال وانظر إلى وجوههم، لقد هشَّموها بقنبلة تزن طنا من المتفجرات.

- تماسك حسام ونظر إلى الأطفال في الثلاجة فرأى الرضيعة الجميلة فازداد بكاءً

- فقال أبوها : إنها «حياة جميلة» ابنة الأشهر العشر التي كانت لا تعرف سوى الضحك.

- وفجأة لدى إغلاق باب الثلاجة رأى حسام فردة حذاء بقدم «حياة» فاستحلف الأب أن يعطيه إياها، فاستجاب الأب المفجوع قائلاً:

لقد كانت ترفض النوم دون ارتداء حذائها الذي أحضرته لها قبل شهر واحد فقط.

- أمسك حسام بفردة الحذاء المكسوَّة بالغبار والملونة بالدماء وقال:

لا عشت إن عاشوا يا حياة، لا عشت إن عاشوا يا حياة.

ركل يوني ظهر حسام الذي راح في غفوة قصيرة قائلاً:

هل نمت أيها القذر، وأيضا تحلم في غرفة التحقيق وتتمتم خزعبلاتك؟ قل لي أيها الوضيع: أين ذهبت بالظرف الفارغ للرصاصتين؟ هيا تكلم؟

راني: ربما خبأهما مع شقيقته الجميلة.

يوني: أتقصد التي سهرت معها البارحة ؟ صدقني لم أكن أعرف أن العربيات مثيرات إلى هذا الحد.

- حسام يتحدث مع نفسه: لن تنالوا مني أيها السفلة ولن تنطلي علي خدعكم، حتى لو أحضرتم شقيقتي إلى هنا فلن تنالوا مني كلمة واحدة.

كوبي : يا حسام ارحم نفسك، ألا يقول رسولكم محمد «أن لبدنك عليك حقًّا».

فلماذا كل هذا العناد وقد اعترف الجميع بكل التفاصيل، أتريد أن تقتل نفسك تحت التعذيب؟ انظر إلى نزار وأيضا الأستاذ أحمد قالا

تفاصيل التفاصيل، وأنهيا التحقيق وأنت لا زلت تصر على عنادك.

يوني: قلت لكم إن هذا الوغد لا يعرف إلا لغة القوة فدَعوني أصنع له عاهة دائمة تذكره بنا طول حياته.

كوبي : فقط قل لي لماذا طلبت المسدس من نزار وليس من أبيك؟ مع أنك تعلم أن المسألة سهلة بالنسبة إليه؟ تكلم فقط، أجبني إجابات منطقية.

حسام: لا أعرف أن والدي تاجر سلاح بل كان لديه مسدس واحد مرخص مع حارسه لذلك طلبت من نزار ودفعت له الأجرة.

كوبي: سأذهب معك فيما تقول ولكن! هل يُعقل أن يتصادف ذلك مع إطلاق النار من جانب نزار باتِّجاه المضافة وبعد لحظات يطلق مسدسك رصاصتين، والرصاصتان تخترقان رأسي الجنرال وحارسه؟

حسام: خيالك واسع، فأنا لم أطلق النار!!

يوني: صحيح لم تطلق النار أيها الوضيع بل أطلقت الرصاص!!

كوبي: سأفترض أن كلامك صحيح ولكن أين ذهبت الرصاصتان من المخزن؟

حسام: استلمته وفيه اثنتي عشرة رصاصة فقط.

كوبي: اسمع يا حسام لقد مضت ستة أيام على وجودك عندنا، وأعدك أن لا تخرج من هنا حتى تعترف ولكن إلى حين ذلك، سننُزِّلك الآن إلى الزنزانة حتى تستحم وتأكل وتغير هذه الملابس المقرفة، وبعدها ستعود.

راني: لقد قرفنا من رائحتك أيها العفن ومع ذلك أنا أستمتع بضربك.

حسام في نفسه: هذا ما أريده أيها القتلة..

-أنزل السجان حساماً إلى الزنازين التي يدخلها لأول مرة والمفاجأة أنه وضعه في ذات الزنزانة التي يتواجد فيها الأستاذ أحمد.

حسام بانفعال: أستاذ أحمد السلام عليكم.

الأستاذ أيضا بانفعال: أهلا. أهلا. يا ولدي عساك بخير، اجلس، اجلس.

حسام: أعتذر يا أستاذي لتسببي بما أنت فيه الآن.

الأستاذ: القدر يا بني هو الذي جمعنا صدفة عند الحاجز ومع ذلك فأنا سعيد لوجودي هنا!!

حسام: كيف ذلك وأنت مظلوم مثلي.

الأستاذ وقد ابتسم في وجه حسام: لولا ذلك الضابط على الحاجز ورفضه السماح لي بالدخول لما عرفت أنك رجل على الرغم من أنك بريء.

حسام: لكنهم لا يصدقون أني بريء وينسجون القصص الخرقاء.

الأستاذ: اسمع يا بني: هؤلاء القتلة احتلوا أرضنا بكذبة عمرها آلاف السنين، ويصنعون الحقائق على الأرض حتى نصدقها نحن، فلا تستغرب ما يطلبونه منك كتعبير عن فشلهم.

حسام وقد أعيته الأيام الطويلة من التعذيب وعدم النوم: أعرف يا

أستاذ أننا الإثنين نعيش في لحظات مستحيلة، ولكن!! ها أنا أمامك فهل تقبل ب...

الأستاذ: لا تكمل يا حسام، فأنت خير الرجال لأجمل الفتيات سعاد، ضع يدك بيدي نقرأ الفاتحة رغم أنف الزنازين وأسيادها.

حسام وهو يضحك: أظن أنهم سيقرأون على روحي الفاتحة بعد قليل.

الأستاذ: ستكون أسرع شهيد في الحب، ولكن لا تنسَ أن سعاداً تنتظرك، والآن نم يا بني وارتَحْ.

حسام: لقد طار النوم من عيني وجسدي المرهق فرؤيتك يا أستاذ قد دبَّت الروح في كل كياني.

الأستاذ: أظن بأن الحقيقة غير ذلك يا تلميذي العزيز!!

حسام وقد احمر وجهه المليء بالدماء المتخثرة: أقول الحقيقة كما علمتني يا أستاذ.

الأستاذ: نعم، ولكن سيرة سعاد هي التي أنعشتك.

- ضحك الاثنان على وقع الأوجاع والمجهول وغرابة الذي يحدث.

كانت غرفة العمليات تسمع حديث الأستاذ مع حسام وفي ذات الوقت تسمع تسجيل محادثات نزار مع جاره في الزنزانة المجاورة، حيث وثق

نزار به فأعطاه سره الذي أكد صحة اعترافه ولكن أضاف بأنه أطلق النار صبيحة ذلك اليوم المشهود على أحد تجار المخدرات في ذات المسدس الذي أعطاه لحسام حيث لم ينظفه وأبقاه على حاله، وبالطبع كان الجار جاسوساً معهم ويطلقون عليه في عرف الحركة الأسيرة «العصفور أو الصرصور».

الجنرال: أريد التركيز على بيت أبي حسام والعمل على الفرضية الأخرى، لقد تلاعب بنا حسام، ومع ذلك استمروا بالتحقيق معه حتى يتعب ويعترف.

كان التركيز في بيت أبي حسام على شقيقة حسام «بيسان» التي كانت كبرى الأولاد بعد حسام ولكنها كانت عنيدة جداً، فقد حاولوا أن يهددوها بعِرضها، ولم يفلحوا بإرغامها على قول ما لا تعرف، ونفس الشيء كان مع الخادمة المسكينة التي هددوها بالطرد إذا لم تتجاوب معهم.

- وفي غرفة التحقيق في المطبخ اكتشف المحققون نافذة خفية في جدار المطبخ المطل على المضافة وقد غطاها ستار من القماش الملصق على الجدار والشبيه بلون الطلاء الموجود، وقد غُطِّيَت من ناحية المضافة بلوحة صغيرة بحجمها ضمن العديد من اللوحات الموجودة داخل المضافة والتي تكسر بعضها أثناء عملية الاعتقال.

- تم وضع القيادة بهذا التطور حيث وُجد على النافذة آثار الكحل الذي ينتج عن عملية إطلاق النار ويعلق في أقرب مكان، لكنهم لم يجدوا

بصمات هناك، وعلى ضوء هذا التطور النوعي في التحقيق تم التركيز على الأطفال الذين يتنقلون ما بين مطبخ الضيافة والبيت، حيث أحضر المحققون خبراء في علم النفس لتحفيز الأطفال على الكلام وقد أثمر ذلك!!

لقد ضاق الحال على كثير من العائلات الفقيرة داخل البلدة، نتيجة لحظر التجول المستمر مما دفع إمام البلدة الشيخ حسن إلى محاولة تحشيد الناس لكسر الحظر، عبر الاتصال مع الشخصيات التي ستتحرك:

الشيخ: السلام عليكم، كيف حالك يا أبا سليم.

أبو سليم: مرحبا بالشيخ حسن، لقد كنت أنتظر أن تتصل.

الشيخ: إذاً القلوب والعقول عند بعضها، ونريد أيضا أن تعمل السواعد!

أبو سليم: أنا على استعداد لما تريدون في أي وقت، فقط أعلِموني.

الشيخ: عليك أن تتصل بالشخصيات التي تركن عليها للتحرك في الساعة المناسبة حتى نخرق حظر التجول وصولا للبيوت الفقيرة.

أبو سليم: أقترح أن تتصل بأبي أسيل حتى نستفيد من خبرته إلى أبعد حد.

الشيخ: بارك الله فيك أيها الحداد الشهم.

- لقي الشيخ تجاوباً من الشخصيات التي اتصل بها، حيث تم تطوير الفكرة عند أبي أسيل: أحترم فيك هذه الروح أيها الشيخ الجليل، قالها

أبو أسيل.

الشيخ: هذا بعض ما عندكم يا أهل الشهداء الذين رفعوا رؤوسنا.

أبو أسيل: لكننا بحاجة إلى تغطية إعلامية حتى تؤتي خطوتنا ثمارها على جميع الأوجه.

الشيخ: كيف ذلك وهم يحظرون دخول أي إنسان إلى البلدة؟

أبو أسيل: سنواصل مع الصحافة والإعلام عبر الهواتف الخلوية وفي ذات الوقت يجب أن يكون هناك تحرّك في المدن والبلدات العربية لفك الحصار عنا.

الشيخ: أنا سأعمل على ذلك مع كل الأطياف والفعاليات بإذن الله.

أبو أسيل: ولا تنسَ يا شيخ المأساة التي تحدث في بيت المرحوم أبي حسام حيث الأطفال الصغار، والرُّعب الذي يعيشونه في ظل الوجود الدائم لقوات الأمن الإسرائيلية هناك.

الشيخ: يجب أن نتحرك باتجاه البيت، لكنا بحاجة إلى حشد جيد من الناس.

- كانت عائلة أبي أسيل تتفاعل إيجابياً مع الحدث حيث قالت أم أسيل: أنا سأكون الأولى التي تخترق حظر التجول.

أبو أسيل: لكننا لم نتفق على إخراج النساء لأننا لا نعرف بعد كيفية ردة الفعل لدى قوات الاحتلال.

رائد: أراك يا أبي تردد كلمة الاحتلال كما لو أننا في رام الله؟

أبو أسيل: هذا ليس وقت الحديث عن ذلك إلا إذا نسيت أن بلدتك الأصلية هي قيسارية؟

أم أسيل: المهم الآن، أنني سأتصل بسعاد وإيناس وزوجة الشيخ والنساء اللواتي أعتمد عليهن حتى نشارك قبلكم.

الجدة: يبدو أن زوجة ابني تريد إشعال الحرب مجدداً بيننا.

أم أسيل: أستغفر الله يا عمتي، أنتِ الخير والبركة.

الجدة: هذه العكاز ستكون أول من يتقدم الناس بإذن الله وسترون جدتكم على حقيقتها.

رائد: نحن نعرفك يا جدتي ونعرف عظامك القنابل.

قام الفريق الجنائي العامل داخل المضافة والبيت بفحص كل مصارف المياه إلى الدرجة التي جعلته يفرغ حفرة الصرف الصحي ويبحث بين الأوساخ عن الأدلة وتحديدا الظرف الفارغ، وفعلا عثر

لكن التطور الأبرز ما قالته الشقيقة الصغرى لحسام، البالغة من العمر ست سنوات ،حيث شاهدت الخادمة الفلبينية تركض خارجة من المطبخ وتعود بعد لحظات.

ضابط التحقيق: لماذا كذبت وقلت بأنك لم تكوني وقت إطلاق النار؟

الخادمة وهي تبكي: لقد خفت يا سيدي أن تحققوا معي وأصبح مشتبهة فتطردوني.

الضابط: لكنك رأيتِ من أطلق النار أليس كذلك؟

الخادمة: أنا لم أر أحداً يا سيدي، أقسمُ على ذلك.

الضابط: إذا أخبرتِني من الذي أطلق النار سنقدم لك مبلغاً كبيراً من المال ونمنحك الجنسية الإسرائيلية وتصبحين بذلك مواطنة في الدولة.

الخادمة: أنا خادمة مسكينة وأهلي فقراء جداً وبحاجة لمساعدتكم لكنني لم أر أحداً.

الضابط غاضباً: سأجعلك تتحدثين رغماً عن نفسك.

وطلب أن يقيدوها بالكرسي من قدميها فقط ويغلقوا الباب ويغادروا.

الخادمة: ما ستفعل يا سيدي، أتوسل إليك أن تتركني.

الضابط: هل أنتِ متزوجة أيتها القبيحة؟

الخادمة: لا يا سيدي، أنا عزباء وأهلي قرويون، أرجوك أن تدعني وشأني.

وقف الضابط وراء الخادمة التي كانت ترتجف من الخوف، وقرب وجهه نحو خدها وقال: لم أعرف أنك جميلة إلى هذا الحد، ولديك هذه البشرة الناعمة.

الخادمة وهي تذرف الدموع وعيناها تنطقان بالخوف:

أرجوك يا سيدي أن تتركني حتى أصعد عند الأطفال.

الضابط: لن يعرف أحد بما سيحدث، سيبقى الأمر بيننا فقط ولكن!! انتظري قليلاً.

فتح الباب وذهب قليلاً ثم عاد وبيده كاميرا فيديو صغيرة، وأغلق الباب مجدداً حيث بدا المكان خارج الغرفة خالياً من كل المخلوقات وكأنه لم يكن مكتظاً قبل قليل.

أركن الضابط الكاميرا أمام الخادمة المرتعبة بعد أن شغلها:

والآن يا عزيزتي الساقطة، سنسجل ما سيحدث ونهديه لأهلك القرويين، فأرجوك أن لا تغضبي أو تثيري الفوضى فسأنهي الأمر بسرعة.

الخادمة: أرجوك يا سيدي أن لا تجعلني أصرخ وأجمع الناس.

الضابط: أمامك خياران لا ثالث لهما، اسم الشخص الذي أطلق النار أو تجعليني أستمتع بهذا الجسد الجميل.

الخادمة: أقسم يا سيدي أنني لم أشاهد أحداً هناك.

مد الضابط يده محاولا فتح قميص الخادمة فدفعته دفعةً قويةً جداً ما أوقعه على الأرض فاندفع المحققون إلى داخل الغرفة بجنون ظناً منهم بأن الضابط قد أصابه مكروه حيث كانوا يختبئون خلف الباب بالاتفاق مع الضابط وعلى الفور بدأ تعذيب الخادمة حتى تعترف.

في الوقت الذي حير فيه أمر الخادمة لجنة التحقيق وقد باتت الشاهد الوحيد في القضية، مما دفع الجنرال للإشراف بنفسه على التحقيق

معها وقد أمر بالحصول على كامل المعلومات عنها من السفارة الفلبينية للضغط عليها.

❖ ❖ ❖ ❖

سعاد: يبدو أننا دخلنا مرحلتين جديدتين معا!

إيناس: قولي ثلاث مراحل.

سعاد: وما هي مرحلتك الثالثة يا فهيمة عصرك!

إيناس: الصبر على فراق الحبيب الجالس هناك في البيت ينتظر اللحظة التي أنتظرها.

سعاد: فعلا أنا آسفة يا حبيبتي لتسببي بذلك.

إيناس: لا لا أيتها المجنونة، فهذا الفراق القسري عن بعلي المحترم زاد شوقي له.

سعاد: إذا أستحق الشكر على هذا الشوق بأن تدعي الله أن يريني وجه الحبيبين قريباً، فلقد اكتوى القلب من نار الفراق.

إيناس: على رسلك أيتها العاشقة الغريبة فلم تدخلي مرحلة الشوق الحقيقي بعد.

سعاد: دعينا الآن من هذا واسمعي ما أردت قوله.

إيناس: قولي يا عاشقة المُخَرِّب وابنة المُحَرِّض.

سعاد: أعتقد أن ما حدث في بلدتنا سيكون له انعكاس على شعبنا في أراضي ٤٨.

إيناس: أتفق معك جزئياً، لأننا بكل الأحوال منبعنا شيئاً اختصر مراحل عديدة لم يبلغها أهلنا في الضفة والقطاع إلا مرةً واحدةً عبر اغتيال الوزير الإسرائيلي رحبعام زئيفي وهذا لا يستقيم مع فترتهم الطويلة وتجربتهم في المقاومة.

سعاد: تقولين بأنك تتفقين معي جزئيا!

إيناس: نعم، لأن حالة حسام فريدة، والضغط الذي تعرض له أنتج في النهاية ما حدث، لذلك علينا أولا أن نعمل جاهدين حتى يصل الشاب إلى مرحلة حسام.

سعاد: لذلك قلت بأننا دخلنا مرحلتين، الأولى ما فعله حسام وسيصبح نموذجاً يحتذى به عند شبابنا وأيضا شاباتنا، وثانياً، ما سنفعله اليوم من تحرُّك شعبي سيفتح الباب للمشاركة الجماهيرية.

إيناس: أعتقد بأن الفعاليات الشعبية السابقة باتت محجوبة وغير ذات جدوى، فما معنى أن نحتج في الصحف والكنيست على مظالمنا ونكتفي بمسيرة مركزية يوم الأرض، والوضع على حاله منذ ستين عاما؟

سعاد: أتفقُ معك ولكن لا أرى أن يتوقف كل ذلك، فهناك أناس يتقنون هذه الوسائل، دعيها تفعل ذلك ما دام لا يعيق التحرك الآخر، وهناك أناس يعملون من أجل المقدسات والأقصى بالطرق التي يرونها مناسبة

وندعم في ذلك، هناك أناس ونحن منهم نرى تفعيل المقاومة النوعية حتى تكون رديفا لأهلنا في الضفة والقطاع، وتأكدي أنَّ الكثير ينتظر أن يعلق أحدهم الجرس وقد فعلها حسام.

إيناس: ما نقوله الآن سيلقى معارضة قوية ممن يدَّعون الظرف الخاص لعرب الثمانية والأربعين وأن صمودنا في الأرض هو مقاومة.

سعاد: سحقا للظرف الخاص الذي يجعلني أرى أهلي يذبحون كالخراف وأكتفي بالشجب والاستنكار والتصدق عليهم ببعض المال، انظري إلى أهلنا في نابلس وبيت لحم ورفح صامدين ومع ذلك يقاومون، للأسف يا إيناس، كذب الصهاينة كذبة ونحن صدقناها، فتربع المحتل على صدورنا وفي ذات الوقت لم يتحقق الحد الأدنى من المساواة في الحقوق التي يزعمونها.

إيناس: أنا على قناعة تامة أن حسامًا لم يفكر أصلا بما نقوله الآن، لذلك لا تتعبي نفسك بالتفكير بما يفكر به الآخرون.

سعاد: ليتني كنت معه يا إيناس.

إيناس: صدقيني إنك كنت ولازلت معه وسيكون أبناؤكما حملة الراية بإذن الله.

بدأ الناس في التجمع أمام المسجد الواقع في البلدة القديمة، المكان

الذي لا تتواجد فيه قوات الأمن الإسرائيلية، حيث استطاعوا الوصول من بين البيوت وقد جمعوا مواد تموينية كافية للعائلات المحتاجة.

الشيخ حسن: اسمعوا أيها الأخوة والأخوات، نحن هنا في أمر مهم يتوقف عليه الكثير، فمن رأى بنفسه عدم القدرة فليذهب إلى بيته.

أبو سليم: هذا اليوم سيَفتح مرحلة جديدة فإذا نجحنا سيذكرنا أبناؤنا وأحفادنا بكل فخر وعزة.

الشيخ: بارك الله فيك يا أبا سليم والآن فلنسمع إرشادات أبي أسيل.

الجدة مقاطعة: هل سنضربهم إذا حاولوا منعنا؟

أبو أسيل: لا يا والدتي فنحن في مهمة سلمية فلندع الأمر للذين يتقنون فنه، بل سنخرج بعد التوزيع للعائلات في مسيرة باتجاه بيت أبي حسام حتى نفك الحصار عن أطفاله، والآن فلنفتح الهواتف الخلوية حتى نبث المسيرة مباشرة .

رائد: أبي أبي لقد جاءت سيارات الجيش والشرطة.

الشيخ: حافظوا على هدوئكم وتماسكوا جنباً إلى جنب.

أبو أسيل: ابدؤوا بالتقدم نحو المضافة وإذا أوقفونا بالقوة اجلسوا على الأرض.

الضابط المسؤول: ماذا تفعلون هنا ؟ أنتم تخرقون حظر التجول.

الجدة: هذه بلدتنا، انصرفوا من هنا.

الضابط: إذا لم تتفرقوا سنضطر لإطلاق النار عليكم.

أبو أسيل: كما فعلتم في السابق وقتلتم ثلاثة عشر شهيدا؟

الضابط: لا تتفلسف وإلا ألحقتك بهم، هيا انصرفوا إلى بيوتكم قبل أن ينفد صبري.

الشيخ: نريد أن نعرف أخبار الأطفال في بيت أبي حسام؟

الضابط: وهل لكم عينٌ للحديث عن هؤلاء المخربين؟

الشيخ: نحن نعرف جيداً من هم المخربون!

الضابط: اخرس أيها الإرهابي القذر.

قالها الضابط وهو يضرب الشيخ بعقب بندقيته مما أوقع الشيخ على الأرض الأمر الذي جعل الناس يبدؤون بالصراخ والتكبير، وقد جلسوا بعدها على الأرض في ذات الوقت، كانت الوفودُ الشعبية من المدن والقرى العربية تتجمهر على مداخل البلدة لفك الحصار، والإعلام يغطي هذا التحرك.

كان التحقيق مع الخادمة يشهد تطوراً قد يغير مجرى التحقيق كليا، حيث شهد البيت الذي أصبح مركزا للتحقيق حركة فجائية أربكت جميع الموجودين.

الجنرال: متى جاءت هذه المعلومات؟

ضابط التحقيق مع الخادمة: قبل دقائق يا سيدي وهي من السفارة الفلبينية، وسيكون اعترافها بين يديك خلال دقائق.

الجنرال: نعم لقد امتحنت فشلكم إلى هذه اللحظة، فاغرب عن وجهي.

دخل الجنرالُ على الخادمة المسكينة وأخذ يحدق بوجهها ويدور حولها في الوقت الذي كان وجهها قد انتفخ من الضرب: ألا تريدين قول الحقيقة؟

الخادمة: لقد قلتها ألف مرة وأنتم لا تصدقونني.

الجنرال: ما هو اسمك الكامل وعنوانك في الفلبين؟

الخادمة: كريستي مايك، أسكن في قرية كورك شمال الفلبين.

الجنرال: لماذا تكذبين يا فاطمة؟

نظرت الخادمة لوجه الجنرال وهي مشدوهة: أنا كريستي يا سيدي.

الجنرال: أنت لست كريستي يا فاطمة، ولست من الشمال يا فاطمة، وقريتك ليست كورك يا فاطمة، فهل تودّين شرح الأمر يا فاطمة؟

الخادمة: لا أعرف عن ماذا تتحدث يا سيدي.

وفجأة دخل ضابط إلى الغرفة وأعطى الجنرال ورقة وانصرف.

كانت عينا الجنرال تقدح شرراً وهو يقرأ ما بداخل الورقة وفجأة جلس على ركبتيه ووضع يديه على ركبتي الخادمة وقال لها وهو ينظرُ لعينها:

كلُ الاحترام يا فاطمة، كل الاحترام يا فاطمة.

الخادمة: أنا كريستي يا سيدي وأرجوك أن تدعني وشأني.

الجنرال: فاطمة حسن هاشم، طالبةٌ في كلية الحقوق في جامعة مانيلا، من سكان إقليم مورو المسلم جنوب الفلبين.

وفجأة ضحكت الخادمة بأعلى صوتها، بينما استمر الجنرال بالقول: ناشطة في جبهة تحرير مورو الإسلامية، وابنة القائد الميداني المشهور صانع القنابل حسن هاشم.

الخادمة وهي تبكي: الذي قتلتموه أيها الكلاب.

الجنرال: كريستي مايك، ماتت قبل سنتين في قريتها النائية، أما فاطمة فهي الآن أمامي هيا يا فاطمة ماذا تريدين أن تضيفي؟

فاطمة، كنت أعرف أنكم ستصلون إلي ولكن ليس قبل أن أمرغ أنوفكم في التراب.

الجنرال: وقد مرغته يا فاطمة ولكن لماذا فعلت ذلك؟

فاطمة: اسألوا كلابكم في الموساد الذين يتعاونون مع حكومة مانيلا والقوات الأمريكية في قصف أهلنا واغتيال قادتنا في إقليم مورو المسلم الذي يتوق إلى الحرية من الاستعباد.

الجنرال: وكيف تعرفين بأن الموساد الإسرائيلي يعمل في بلدكم.

صمتت فاطمة هنيهة ثم قالت والدمع ينزل من عينها الجميلتين:

لقد عثرنا على أحد الجرحى المهاجمين الذين قاموا باغتيال والدي

والذي اعترف قبل موته أن الموساد الإسرائيلي هو الذي خطط لعملية الاغتيال.

الجنرال: وقررتم على ضوء ذلك الانتقام؟

فاطمة: بل قررت ذلك وحدي؛ فالتعامل بالمثل قانون إلهي ووضعي.

الجنرال وهو غاضب: لكنك قتلتِ أرفع شخصية بعد رئيس الوزراء؟

فاطمة: كنت آمل أن يكون رئيس الوزراء بنفسه، فرأس أبي لا تعدله كل الرؤوس.

الجنرال: لن أفعل لك شيئاً، قولي ما تشائين ولكن ! كيف وصلت إلى إسرائيل وإلى بيت أبي حسام؟

فاطمة: بعد أن حصلت على هوية كريستي سجلت في مكتب لتشغيل الخادمات اشترطْتُ أن يكون ذلك عندكم، ودعوتُ الله أن يلبي ما أريد فكان ذلك على أفضل ما يكون.

الجنرال: أكملي القصة يا فاطمة، فاسمك سيحفظه العالم بعد قليل.

فاطمة: يكفي أن يراني أبي الآن ويسمع أطفالُ شعبي ما فعلت، أما التفاصيل فلن أتحدث بها حتى تُحضروا إليَّ بيسان وبقية الأطفال.

الجنرال: وهل ستعطيني المسدس؟

فاطمة: نعم ستحصل عليه ولكن الأولاد أولا.

حضرت بيسان والأطفال واحتضنوا خادمتهم كريستي وهم يبكون:

فاطمة : لا تبكوا يا أحبائي، واسمعوا ما سأقول لكم.

نظرت بيسان مشدوهة إلى فاطمة التي أصبحت تتحدث بصورة راقية ومختلفة.

فاطمة: أنا لست كريستي ولست خادمة، أنا فاطمة حسين، مثلكم تماما أحب أهلي وبلدي وأحب الأقصى أيضاً، ولقد أحببتكم جداً وأتمنى أن تحبّوني كما كنتم وأكثر، لكن هؤلاء قتلوا أبي فجِئْتُ حتى أنتقم.

بيسان وهي تنظر إليها باكية: أأبوك شهيد مثل أبينا وأمنا ؟

فاطمة: نعم يا حبيبتي وأيضا خالي وابن عمتي، أما أنا فمصابة من قصف الجيش الفلبيني لقريتي أما الآن، فسيعود لكم حسام سالماً.

الأطفال وهم يبكون، لا تتركينا يا كريستي.

بيسان وهي تحتضن فاطمة: حفظك الله يا فاطمة وفرّج عنك، لقد كنتِ أُمّاً لنا في هذه الأيام الصعبة وما قبلها.

- كان الجنرال ينظر بغضبٍ شديدٍ لما يحصل لكنه كان يسعى إلى أخذ التفاصيل سريعاً والتي ستهز الحكومة الإسرائيلية بل العالم أجمع، وأثناء خروج الأولاد من الغرفة قالت فاطمة لبيسان: أرجوك يا حبيبتي أن توصلي لأمي وأخوتي حبّي لهم وأن يسامحوني!!!

- هزت بيسان رأسها بالقبول وهي تشهق باكية على فاطمة.

الجنرال: لقد خرقت كل القواعد المتبعة، وسمحت لك ما تشائين والآن ستعطينني ما أشاء حسب اتفاقنا، وأتمنى أن لا نضطر لأي أسلوب عنيف..

فاطمة: لم يعد هناك شيء يستدعي العنف من ناحيتي، ولكن أبشركم بألف فاطمة وألف محمّد إذا واصلتم مساعدة الحكومة الفلبينية في ضرب شعبنا.

الجنرال: لكنّك تزعمين شيئاً لا نعترف به رسمياً وليس لدينا علمٌ به.

فاطمة: يكفي أن نعلم نحن به، كما أنكم تعطونا المحفز للتعجيل بدورنا في معركة الأمة ضدَّ احتلالكم لأرض الإسراء والمعراج.

الجنرال: وما علاقتكم بالصراع الدائر هنا؟

فاطمة: صحيح أن واجب الساعة يفرض علينا أن نقاوم النظام في مانيلا لِـرَدِّه عن أهلنا وشعبنا وصولاً إلى تحقيق أهدافنا بالحرية والكرامة، غير أننا جزء من هذا العالم الإسلامي الذي يرى في فلسطين جزءاً من كيان الأمة وحضارتها.

الجنرال: فلندع هذا الحديث جانباً ولتشرحي لي أولاً كيف حصلت على المسدس؟

فاطمة: وجدته في درج أبي حسام الخاص والذي لا يفتحه أحد سوى زوجته.

الجنرال: أخذتِه طبعاً بالاتفاق مع حسام؟

فاطمة: لم أكن بحاجة إلى أي أحد فيكفي أن أحصل على المسدس لحظة التنفيذ.

الجنرال: ألم تساعدك أم حسام؟ فقد كانت في المطبخ.

فاطمة: رحمها الله، كم حاولتُ أن أتحايل عليها حتى تصعد عند الأولاد دون أن تشعر لكنها رفضت فاختارها الله إلى جواره.

الجنرال: هل تريدين إقناعي أن الفوضى التي حدثت وإطلاق النار من الخارج لم يكن ضمن خطة شاركتِ بإعدادها مع حسام؟

فاطمة: اسمع أيها السيد، كنت سأقتل الجنرال حدثت فوضى أم لم تحدث، فأنا استشهادية ولم أكن لأبحث عن النجاة، فقد كان أمامي طيلة فترة وقوفه على المنصة.

الجنرال: ولماذا لم تطلقي النار عليه؟

فاطمة: كان يحول بينه وبين رصاصتي حارس يقف إلى جانبه، وفي اللحظة التي دبَّت فيها الفوضى أزاح الحارس نفسه قليلاً فأطلقتُ النار على رأس الجنرال مباشرة.

الجنرال: وكيف مات الحارس؟

فاطمة: رآني الحارس بعد الإطلاق مباشرة وأخذ يطلق النار فاحتميتُ قليلا، ومن ثم عالجته برصاصة في رأسه ولكن للأسف أصيبت أم حسام التي كانت تنظر إلي وهي مصدومة دون أن تقول شيئاً.

الجنرال: كم رصاصة أطلقتِ؟

فاطمة: فقط رصاصتين، وهما ما كانتا في المسدس، والحقيقة أنني لم أحتج لغيرهما.

الجنرال: كيف استطعتِ إصابتهما في الرأس؟

فاطمة: أنا اقتص الهدف بالحس دون أن أراه، فلقد علّمني أبي الشعور بالهدف قبل الإطلاق، كما أنني أستحضر معيّة الله عزَّ وجل وأقول قبل الإطلاق «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» بسم الله.

الجنرال: ولماذا أخفيت الظرف الفارغ وارتديت القفازات أثناء التنفيذ إذا كنت تعتبرين نفسك استشهادية غير آبهة بالقتل أو السجن؟

فاطمة: أحببت أن آخذ بالأسباب علني أستطيع التمويه والعودة للفلبين حتى أشارك أهلي مقاومتهم.

الجنرال: وما الذي يثبت لنا أن المسدس عائد لأبي حسام؟

فاطمة: أسالوا الطفلة الصغرى فقد كانت تعبث بالمسدس في إحدى المرات بعد أن نسي أبو حسام إغلاق الدرج.

الجنرال: والآن نريدُ المسدس.

فاطمة: إنه في حديقة المنزل الخلفية.

الجنرال: في أي نقطة بالضبط؟

فاطمة: أنا لم أدخل الحديقة سوى مرات قليلة ولا أحفظها جيداً.

الجنرال: إذاً ستذهبين مع المحققين لإحضار المسدس ولكن !! اعلمي أنك ستكونين في العالم الآخر إذا قمت بأي حركة غريبة.

فاطمة: لقد حققت ما أريد فلا داعي للخوف، ولكنني أخاف أن يغدر فيَّ جنودك!!

الجنرال: لن يمسَّكِ أحد مطلقا فأنا موجود في المكان.

فاطمة: لقد تعاملتَ معي باحترام، ورغم كل ما فعلت، فأكمل ذلك حتى النهاية!!

الجنرال: ماذا تريدين بالضبط، فقد طلبت من الجميع الحفاظ عليك؟

فاطمة: أرجوك أن تصحبني بنفسك فقد سمعت بأن الانتقام عندكم سياسة متبعة قد يقوم بها أي شخص وتقولون بعدها أنه مجنون أو في حالة صدمة.

الجنرال: دَعكِ من هذا الهراء وسأسجّل سابقة في دولة إسرائيل وأحضر معك لكنك ستكبَّلين بالأصفاد من الخلف.

فاطمة: شكرا لك، سيذكر العالم هذه اليوم وليس فقط في دولتك!!

كانت الحديقة تطل على البلدة كونها على تلة مرتفعة، الأمر الذي أمكن المعتصمين قبالة الجيش من رؤية الحديقة بصورة واضحة، حيث لازالوا مصممين على التوجه لبيت أبي حسام رغم بعض العنف الذي مارسه الجنود ضدهم.

الشيخ حسن: ما لذي يجري هناك؟

أبو أسيل: كالذي يجري هنا وفي كل فلسطين من أكثر من ستين عاماً.

الشيخ: ليتنا نستطيع الوصول أو حتى ثني القتلة عن إرعاب الأطفال والكف حتى عن مضايقة الأشجار.

الجدة: لا تحزن يا ولدي، فتلك الأشجار عصيّة جداً، تمتد جذورها في الأعماق، فلا زلتُ أذكر والدة أبي حسام التي أحضرت معها أشتال البرتقال يوم أن طَرَدنا الصهاينة من بلدتنا «قيسارية» وأصرَّت أن تزرعها في هذه الأرض حتى لا تنسى برتقال قيسارية وذكرى زوجها الذي قتله المجرمون وهو يدافع عن البلدة بكل شجاعة وبسالة.

رائد: تحركات الجيش في الحديقة وما حولها توحي بشيء غريب لم يحدث طيلة الأيام السابقة.

سعاد: ليتنا نستطيع التحدث مع بيسان حتى نطمئن عليها وعلى إخوتها والخادمة.

حينها سارع أبو أسيل للاتصال ببيسان التي لا تردّ في الأيام التي سبقت لكنها في هذه المرة ردت:

بيسان بصوتٍ منخفض: ألو - ألو.

أبو أسيل: كيف حالك يا ابنتي وكيف إخوانك الصغار؟

بيسان: نحن بخير يا عم، لكنَّ أمرًا كبيرًا قد حدث ولن تصدقه أبدا!!

أبو أسيل: تحدثي يا ابنتي لقد أفزعتِني.

بيسان: كريستي يا عمي، الشغالة الطيبة كريستي.

أبو أسيل: ما بها، هل آذوها، قولي بسرعة.

بيسان: لا،لا، بل آذتهم وهي مَنْ قتلت الجنرال!!

أبو أسيل: ماذا تقولين يا ابنتي، أأنت في وعيك أم ماذا ؟!

بيسان: لقد اعترفَتْ لهم بذلك وأنَّ اسمها فاطمة وليست كريستي.

أبو أسيل وهو مصدوم: وأين هي الآن؟

بيسان: يبدو أنهم يتوجهون بها إلى الحديقة ولا أدري ما السبب، لكنها هادئة يا عم وكأنها لم تفعل شيئا.

أبو أسيل مقاطعا: أجِّلي الحديث يا ابنتي وانتبهي لإخوانك ولا تسمحي لأحد بالاقتراب منك وخصوصاً في ساعات الليل، فهؤلاء لا أمان لهم.

بيسان: لا تخف يا عم فقد أمدَّتني فاطمة بعزيمة لا مثيل لها وكم تمنيت لو كنت مكانها حتى أصنع ما صَنَعت وأكثر.

أبو أسيل: اصمتي يا ابنتي وأغلقي الهاتف وسنبقى على اتصال بإذن الله وتأكدي أن جميع أبناء البلدة يتضامنون معكم الآن ولن نهدأ حتى نفك الحصار عنكم.

إيناس: كيف الأحوال هناك يا أبا أسيل ؟

أبو أسيل: أحوال تجاوزت حدود الجغرافيا والتاريخ!!

إيناس مستغربة: لا أفهم شيئا يا أستاذ.

أبو أسيل: أحيانا يثقل الفهم على المرء فينقلب جهلاً في أوضح الأمور!!

نظرت إيناس إلى سعاد والحيرة سيدة الموقف.

وفجأة قالت أم أسيل: انظروا، انظروا إنهم يتجمعون قرب شجرة

البرتقال الكبيرة، التي كنا نلعب تحتها ونحن صغار.

سعاد وهي تشيرُ بإصبعها: أليست تلك الخادمة كريستي؟ ماذا تفعل بينهم يا لها من مسكينة، انظروا كيف يحيطون بها.

أبو أسيل وقد وقف على قدميه محدقاً صوب فاطمة الجغرافيا والبطولة قائلا في داخله: ليس وحدك يا بيسان بل أتوق أن أكون مكانها، ليتني ظفيرة في رأسها أو رمشة في عينها أو حتى أصغر من أصغر أشيائها.

كانت البلدة مضطربة وقد اصطف الناس على أسطح المنازل عوضاً عن المعتصمين في الشارع وطاقم تلفزة عالمية قد تسلل إلى البلدة يراقب المشهد الذي يحدث أمامهم.

❖ ❖ ❖ ❖

سار الجنرال إلى جانب فاطمة وقد صحبهما طاقمُ التحقيق الجنائي وثلّة من الضباط المشرفين على القضية.

الجنرال وقد وصل الجميع إلى منتصف الحديقة: أشيري يا فاطمة بعينيك صوب المكان.

فاطمة: إنه هناك في الجهة اليسرى من شجرة البرتقال.

بحث المحققون عن المسدس فلم يجدوه.

الجنرال: ماذا تقصدين بذلك يا فاطمة؟ أتلعبين معي؟

فاطمة: رجالك فاشلون، قدني إلى هناك وسأريك إيّاه بنفسي.

قادها الجنرال وهو ينظر إلى هدوئها الذي أثار فضوله في تلك اللحظة الحاسمة مما دعاه لسؤالها:

بماذا تفكرين يا فاطمة ؟ ما المشاهد التي تدور في رأسك الآن؟

فاطمة: تراني غريبة أليس كذلك؟

الجنرال: أعترف بأنني أحترم هدوءَك الذي أتمناه لجيشنا، وفي الوقت ذاته أتمنى معرفة السرِّ الذي يصنع الفدائية فيك.

فاطمة: لن تستطيع الإمساك بذلك ولو عرفته نظرياً.

الجنرال وقد أوقفها عن المسير:

جربيني ولن تخسري شيئا، أخبريني عما يدور في هذا الرأس الذي أحترمه؟

فاطمة: عليك أولاً أن تكون مظلوماً مسلوبَ الأرض والحرية، ترى عدوك يقتل ويسلب ويأسر وينعم بخيرات أجدادك، يعبث بتراثك وحضارتك، يصطنع الأكاذيب حتى يصوغ لنفسه فعل ما عجزت الحقائق عن إثباته، عندها فقط تستطيع مشاهدة الصور التي أراها الآن.

الجنرال: أراك تتحدثين بلسان فلسطيني وليس فلبيني؟

فاطمة: قبل سبعة عشرة عاماً من هذه اللحظة، كنت طفلة صغيرة ومع ذلك أتسمّر أمام التلفاز باكية وأنا أنظر إلى جيشكم وهو يقتل أطفال الحجارة، يهدم البيوت العامرة، يجرف الأراضي المثمرة، ويخرب

بحفرياته تحت المسجد الأقصى الذي نقرأه قرآنا في صلاتنا وعبادتنا، أرى المساجد التي حولتموها إلى حظائر للحيوانات وبارات لبيع الخمور، فأتساءل ببراءة الطفولة: أين أهل العزة من ذلك، لماذا لا نذهب إلى هناك ونطردكم ؟ والآن وأنا أنظر إلى شجر البرتقال، تذكرت صلاح الدين الأيوبي الذي حرر المسجد الأقصى وفلسطين من الصليبيين وهو كردي، فخاطبني طيفه.

الجنرال: ألهذا الحد نحن سيئون في نظرك؟ ألا تعرفين بأننا أصحاب هذه الأرض وكنّا فيها قبل أكثر من ألفي عام؟

فاطمة: للأسف الشديد، إن العدل غائب في عالمنا المعاصر، فأصبحت الوقائع المادية على الأرض المفروضة بقوة السلاح تلبس أثواب الشرعية، ناسجة لنفسها ما تشاء من أكاذيب، وإلا لكان العدل بأن تقول عن الكنعانيين العرب الذين عمروا هذه الأرض قبل أكثر من أربعة آلاف سنة، إنهم أسياد هذه الأرض، لكنني لا ألومك أبداً، بل ألوم الضَّعف الذي أوصل هذه الأرض إلى ما وصلت إليه، لكنني أرى بأن بداية النهاية قد بدأت!!

الجنرال مستغربا: كيف يكون لك ونحن أقوى جيوش المنطقة ونمتلك سلاحاً نووياً لا يملكه سوى القليل من الأصدقاء في العالم؟!

فاطمة: أنا فلبينية وصلاح الدين كردي، غير أنني لا أملك جيشاً من قومي ومع ذلك، سيكون على جيشك أن يقاتل جيش صلاح الدين الذي

سيولد بعد الآن في هذه الأرض المباركة ومن أبنائها!!

الجنرال: لقد ذهبتِ بعيداً يا فاطمة وكأنكِ صلاح الدين نفسه.

فاطمة: لا أظن بأنك ستعيش حتى ترى ما أقول واقعاً على الأرض!!

الجنرال: والآن جاء دور الحقيقة التي أراها أمامي واتحم بها بنفسي، فأشيري بقدمك على مكان المسدس.

أخذت فاطمة تدور بالجنرال ومن معه حول بعض الأشجار وفي نقطة معينة نظرت في وجه الجنرال وقالت وهي تبتسم:

احفر هنا وابحث عن صندوق بلاستيكي.

قام أحد المحققين بفعل ذلك تحت سمع وبصر الجميع، وفعلا عثر على الصندوق.

فاطمة للجنرال: ألا تريد دخول التاريخ الذي سيقول بأنك أول من أمسك بالمسدس الذي قتل جنرالكم الرفيع؟!

الجنرال: ستكون سعادتي أكبر عندما يكتب التاريخ أنني أول من ألقى القبض عليك ومع ذلك سأفتح الصندوق بيدي.

مد الجنرال يده نحو فتحة الصندوق وهو ينظر في شفتي فاطمة اللتين كانتا تتمتمان بكلمات لا صوت لها مصحوبات بنظرات ثابتة!!

وما هي إلا لحظات معدودة: حتى دوى انفجار رهيب مزق الجنرال إربًا وتطاير كل المحيطين به في السماء، وأصبح المكان عبارة عن كتلة نار محترقة جعلت من المستحيل الاعتقاد بأن أحداً من الموجودين قد

نجا من الانفجار الضخم، وقد تناثر جسد فاطمة عشرات الأمتار عن المكان. وكأنها أرادت أن تسقي بدمها أشجار البرتقال التي ستنمو رغم كل الأعشاب الضارة وتُغَذِّي بلحمها الطاهر تراب بيت المقدس حتى يكون مشكاة للجيش الذي قالت عنه قبل لحظات.

كان المكان يزدحم بصراخ المصابين من الصهاينة الذين أصابتهم صدمة مروعة تفوق صدمة مقتل الجنرال الأول.

❖ ❖ ❖ ❖

وفي ظل ذلك المشهد الذي رسمته الفنانة فاطمة بأجمل ألوان الحنكة والتخطيط، وبريشة والدها الذي كان خبيراً بالمتفجرات، كان الهدوء يلف أبناء البلدة المعتصمين في الشارع الرئيسي وكذلك الأهالي المعتلين أسطح المنازل، حيث أمكن الجميع رؤية ما حدث وكأنه فيلم سينمائي يُعرض لأول مرة على شاشة عملاقة، كانت حديقة أبي حسام.

في لحظة الانفجار، وقف جميع المعتصمين على أقدامهم وأنظارهم مشدوهة صوب الحديقة التي تناثرت فيها أشياء عديدة.

أبو أسيل متمتما بشفتيه: الله أكبر، الله أكبر، وهذا أيضاً يا فاطمة؟ تنتقمين لبرتقال قيسارية؟ تدوسين على عجزنا؟ تقتلين خوفنا على مرأى منا؟ أنتِ الأستاذة يا فاطمة، أنتِ درس التاريخ الذي لا يعرف حدود

الجغرافيا، أنتِ صلاح الدين، أنتِ الجيش الذي ولد اليوم فينا وساعدنا.

سعاد مرتجفة: ما الذي يحدث يا أستاذ، أنا في الحقيقة أم ماذا؟!

أبو أسيل: اليوم ولدت الحقيقة بعد مخاض عسير.

الجدة: صدقوني إنني رأيتُ المشهد هذا، يوم أن طردَنا المحتلون من قيسارية، ودمروا الحارة الشرقية فوق رؤوس المدافعين عن القرية.

الشيخ حسن مخاطباً أبا أسيل: يجب علينا أن نفضَّ الاعتصام فوراً حتى لا نتلقى ردة الفعل من الصهاينة الذين لن يتوانوا عن تنفيس غضبهم بنا.

أبو أسيل: دعونا ننسحب بهدوء دون استفزازٍ للجنود وسنتابع تطوُّر الأحداث من بيوتنا.

إيناس: وهل سنترك أبناء أبي حسام في هذا الوضع؟

الشيخ حسن: لن نتركهم يا ابنتي لكن سلامة المعتصمين هي واجب الساعة الآن فالحدث كبير جداً والضربة موجعة أصابت جميع الموجودين في الحديقة من الصهاينة إضافة للخادمة المسكينة.

كان أبو أسيل يسمع حوار إيناس مع الشيخ، فأخذ يبتسم للعبارة الأخيرة، في الوقت الذي شعرت به أم أسيل أن زوجها يُخفي أمراً يتعلق بما يجري هناك.

انصرف الأهالي إلى بيوتهم وتسمروا أمام شاشات التلفزة التي بدأت تبث صور الانفجار التي التقطها فريق التصوير الذي تواجد مع

الأهالي، حيث هزت الصور العالم الذي شاهد الصهاينة يتطايرون في الهواء، في الوقت الذي أدمت الحادثة قلوب الصهاينة وقادتهم، الذين باتوا يتخبطون دون وعي أو إدراك لما يحدث.

فُتح باب الزنزانة بقوة شديدة، أفزعَتْ حساماً الذي كان في نوم عميق، حيث ركله السجان بقدمه طالباً منه النهوض، ومن ثمَّ اقتاده بعنف إلى غرفة التحقيق في الأعلى، الأمر الذي أثار حفيظة حسام الذي خفَّ عنه التعذيب مدة يومين.

الميجر عوز غاضبا: اسمع أيها الجرذ العربي، لقد نفد صبري ولم أعد أحتمل رؤيتك على قيد الحياة وأقسم بهاتين اليدين، اللتان قتلتا عبد الصمد حريزات في مركز تحقيق المسكوبية، أنني سأقضي عليك إذا لم تتحدث القصة كاملة.

حسام: لقد قلت ما عندي وليس لدي ما أزيد.

الميجر: بل لديك كل الزيادة وخصوصاً إذا علمت بأن فاطمة قد اعترفت بكل التفاصيل حتى الأحاديث الجانبية التي بينكما، لذلك أنصحك بأن تتحدث وحدك، لأنك بكل الظروف ستلبس القضية، هذا إذا خرجتَ حياً من هذه الغرفة.

حسام: لا أعرف عن ماذا تتحدث ولست مستعداً للكذب.

الميجر: أتظن بأننا أغبياء لا نعرف بأن دينكم يجيز لكم الكذب أمام العدو؟ لذلك دعك من هذا الهراء وقل لي ما علاقتك بفاطمة؟

حسام: عن أي فاطمة تتحدث؟ فعمتي اسمها فاطمة، والداية التي ولَّدتني اسمها فاطمة وبلدتنا مليئة بالفاطمات؟

الميجر وقد أمسك بحلق حسام: الخادمة فاطمة، التي كانت كريستي أيها اللعين، تكلم وإلا نزعت حنجرتك من مكانها.

كاد حسام أن يختنق ومع ذلك بقي على موقفه المستغرب لهذا الحديث.

الميجر: إذا لم تتحدث عن علاقتك بالخادمة، فسأحضر شقيقتك بيسان إلى الزنازين وسأجعلك ترى بأم عينك ما سيفعله يوفي وأصدقاؤه، فما رأيك؟

حسام: افعل ما تشاء فأنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً، بأن خادمتنا اسمها كريستي ومكتوب ذلك في وثائقها الرسمية.

الميجر: كيف خططت معها لكل ما حدث؟ من الذي وضع لكم هذه الخطة ؟ كيف نسَّقتُم حضورها من الفلبين؟ تحدث قبل فوات الفرصة.

بَدا واضحا علامات الاستغراب على وجه حسام الذي قال:

فقط أقول كلمة واحدة، لا أعلم عن ماذا تتحدث.

وهكذا ظل التحقيق مع حسام عدة أيام إضافية أذاقوه فيها صنوف العذاب كونه المتهم الرئيسي بعد فاطمة التي خلطت جميع الأوراق

مجدداً بعد استشهادها الذي خططت له بصورة رائعة وبأعلى المستويات الفنية، حيث اكتشف المحققون الجدد، أنها استخدمت موادَّ زراعية من بيت أبي حسام في صناعة القنبلة، وقامت بتجهيزها على نحو تنفجر فيه بمجرد نزع الغطاء عن الوعاء البلاستيكي، لكن الأمر الأهم الذي أربك التحقيق مجدداً!! عدم العثور على المسدس أو بقاياه الذي اغتالت به المسؤول الكبير في المرة الأولى، وهذا ما أعاد التحقيق إلى نقطة البداية مع حسام، في ظل ثبات وعناد أبداهما أمام المحققين.

- قاد حساماً إلى غرفة مجاورة لغرفة التحقيق، كان يجلس فيها رجل شرطة يلبس لباساً مدنيا: أهلاً حسام، تفضل بالجلوس.

- كان حسام منهكاً بصورة كبيرة، لكن معنوياته عالية جداً لتمكنه من الانتصار على المحققين حتى اللحظة.

أجاب حسام: شكراً لك.

- الشرطي: أنا محقق الشرطة ومهمتي أن آخذ إفادتك لعرضها على النيابة ومن ثم المحكمة، وأرجو أن تعطيني تفاصيل الاعتراف الذي أدليت به أمام المحققين.

- حسام: ليس عندي ما أقوله لك سوى أنني بريء.

- الشرطي: ألم تعترف بأنك كنت تحمل مسدساً أثناء الحادث؟؟

- حسام المسدس كان لحماية والدي ولم أفعل به شيئاً.

- الشرطي: لكن ...

- حسام مقاطعاً: أراك تحقق معي. فلماذا لا تقول إنَّك محقق وننتهي من هذه المسرحية؟؟!!

- الشرطي: لا لا، لست كذلك، وأنا ملتزم بما ستكتبه أنت.

- حسام: لن أكتب شيئاً وليس عندي ما أقوله لك حتى لو بقيت في الزنازين ألف يوم.

- الشرطي: على كل حال، سنبلغ أهلك بوجودك هنا، وسأبقى مستعداً لمساعدتك في أي وقت تشاء.

- عاد حسام إلى غرفة التحقيق مباشرة ليجد الميجر عوز وبقية المحققين بانتظاره.

- الميجر: اجلس يا حسام، هل تريد قهوة أم كأساً من الشاي؟!

- حسام: لا أريد شيئاً.

- الميجر: لا تغضب يا صديقي فقد كنا نقوم بعملنا ولو كنت مكاننا لفعلت ما فعلناه، لذلك يجب أن تعذرنا على ما لاقيته خلال الأيام العشرين الماضية.

- حسام مستغرباً: أهذا أسلوب جديد لم تستخدموه؟!

- الميجر: لا تكن حقوداً إلى هذه الدرجة، وتذكر أننا نحاول توديعك بصورة لائقة، ولكن ليس للبيت طبعاً!.

- حسام: إلى القبر كعبد الصمد حريزات؟!

قالها حسام مستهزئاً رغم أن الحادثة صحيحة.

- الميجر: دعك الآن من كلام التحقيق، واذهب مع السجَّان حتى تأخذ أماناتك لأنك ستذهب إلى السجن، فلا تنسَ أنَّ عليك تهمة الحيازة لسلاحٍ غير مرخص..

انفرجت أسارير حسام وهو يغادر الغرفة اللعينة التي امتلأت بأوجاعه وصراخه لياليَ وأيامًا، حيث اقتادته سيارة الشرطة إلى سجن عسقلان، فطالما سمع عن هذا السجن الذي يضم في جنباته المجاهدين والمناضلين من أنحاء فلسطين التاريخية ومن الدول العربية كافة.

تحركت البوابة العملاقة حتى تدخل السيارة العسكرية في مشهد أشبه بمشاهد سجن الباستيل الشهير في فرنسا، حيث ابتلعت البوابة السيارة ومن فيها، وبعد التفتيش الدقيق لأسفل السيارة وداخلها سمحوا لها بالمرور، حينها كان حسام مشدوها بما يرى، وأكبر همِّه أن يدخل عند الشباب وينتهي من قصة التعذيب الجسدي والنفسي رغم الخوف الذي لا زال يسكن رأسه.

اقتاد رجال الشرطة حسامًا إلى باب فرعي وقف عليه حارس قصير القامة تبدو على ملامحه السحنة الروسية.

الحارس وهو يحمل بيده استمارة وُضعت عليها صورة حسام:

اسمك الكامل؟

حسام: حسام فتحي القيساري.

بعدها قام الحارس بتفتيش حسام تفتيشاً دقيقاً وطلب منه المرور

من بوابة الفحص الإلكتروني التي تكشف عن المعادن، ومن ثم أخذ منه الأمانات واصطحبه إلى عيادة الطبيب الذي تعامل معه بصورة إنسانية، وبعد الانتهاء من الطبيب، أدخله إلى ضابط استخبارات السجن.

الضابط: أهلاً بك يا حسام ، تفضل بالجلوس.

كان الضابط ينظر عبر شاشة الكمبيوتر ويقلب الأزرار، بعدها قال: أنا أرحب بك في سجن عسقلان وأتمنى أن لا تطول إقامتك هنا.

حسام: أنا في حالي وسأبقى كذلك.

الضابط: ممتاز على الرغم من أن المعلومات التي أمامي تقول غير ذلك، ولكن هذا ليس من عملي بل عمل المحكمة، والآن كما تعلم فإنك ستذهب إلى أقسام السجن وهذا يتطلب أن تخبرني عند أي فصيل تريد العيش حتى أبعثك إلى الغرفة المناسبة.

حسام : أنا مستقل ولا أنتمي إلى فصيل.

الضابط: أنا أحاول مساعدتك، ومع ذلك، ستدخل إلى قسم اثنين وهناك ستقرر أمام الفصائل.

وقف ضابط الاستخبارات وسلم على حسام وطلب من السجّان أن يبعثه لقسم اثنين، حيث سار الاثنان في ممر قصير بعدها دخلا من باب كهربائي تلاه باب آخر، جلس أمامه سجان يحمل كرتًا صغيراً عليه صورة حسام، حيث اصطحب الأخير حسام إلى داخل القسم. وعلى الفور استقبله شاب طويل القامة تعتلي وجهة ابتسامة عريضة وقد عانقه قائلا:

حياك الله يا أخي والحمد لله على سلامتك.

حسام مبتسما: سلمك الله.

الشاب الذي كان شاويشاً للقسم من جانب الشباب:

عند أي فصيل تريد العيش يا أخي؟

حسام: أنا من أراضي الثمانية والأربعين ولا أنتمي لأي فصيل.

الشاويش: لكنك ينبغي أن تختار فصيلاً حتى يكون مسؤولاً عنك، يغطي احتياجاتك ويرعاك من جميع الجوانب، سواء الثقافية أو الاجتماعية.

حسام: أنا مستقل ولكن لا بأس أن تضعني في غرفة المصلين.

الشاويش: تفضل إلى هذه الغرفة مؤقتاً وسنرى الأمر فيما بعد، لكنك لم تُعَرِّفْنا على اسمك بعد؟

حسام: أنا حسام فتحي القيساري؟

الشاويش: بالله عليك أنت حسام؟ حسام لا غير.

حسام: نعم أنا حسام.

الشاويش وهو يعانق مجدداً حسام: أهلا وسهلا بك يا بطل والله لقد رفعت رؤوسنا وأثبتَّ بأن أهلنا في الثمانية والأربعين هم أهل التضحية والفداء، كما أنني أعزيك باستشهاد والديك، وأسال الله أن يجعل مكانهما الجنة.

حسام: شكرا لك على التعزية غير أنني لم أفعل شيئاً يستوجب البطولة.

الشاويش: تفضل، تفضل يا أخي إلى الغرفة ودع التواضع لنا.

دخل حسام إلى الغرفة التي وصلها نبأ وصوله وقد عاش السجن على اسمه طوال الأيام العشرين الماضية، حيث اصطف الجميع على جوانب الغرفة لعناق حسام، كما يفعلون مع كل أسير جديد، غير أنَّ حساماً حالة خاصة جدا.

أمير الغرفة الذي كان شابًّا جميل الطلة بشوش الوجه:

أهلا بك يا حسام، نزلت أهلا ووطئت سهلاً، فوالله إن الكلمات تعجز عن وصف مشاعرنا المختلطة، فمن جهة، نتألم لمصابك يا أخي بفقدان والدَيْك رحمهما الله فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، ولله ما أعطى ولله ما أخذ وكل شيء عنده بمقدار، ومن ناحية أخرى يفخر الإنسان بأن يرى أخاً مثلك فعل ما فعل من أجل دينه وقضيته، فحياك الله وبارك فيك.

شعر حسام بحميمية رائعة، افتقدها حتى في زمن أبيه، كانت كافية بأن تنسيه الجحيم الذي كان فيه قبل ساعات وأيام، وقد وضعه الجميع على كفوف الراحة حيث وفروا له الملابس الجديدة والحمّام الساخن الذي أزال عنه ما علق من أوساخ تكونت بفعل الدماء وغيره.

في المساء وبعد صلاة العشاء التي أعقبت تناول وجبة العشاء التي أعدت بعناية على شرف قدوم حسام، طلب الأمير من الجميع الجلوس للتعرف على أخيهم الجديد.

الأمير: في البداية، نرحبُ بأخينا متمنين له إقامة قصيرة سائلين المولى عز وجل أن يكتب ذلك في ميزان حسناته، وكعادتنا لدى قدوم

مجاهد جديد نبدأ بالتعرف، أخوك في الله، فوزي محمد، أمير الغرفة سكان مخيم نور شمس في طولكرم، محكوم بالمؤبد وعشر سنوات.

المجاهد الثاني وكان كبيراً في السن: أخوك في الله طليع حسين (أبو محمد) متزوج وعندي خمسة أبناء من سكان مدينة نابلس (جبل النار) محكوم بعشرة مؤبدات.

- كان حسام ينصت باهتمام كبير لما يسمع وكأنه يعيش في بطن رواية من الروايات التي كان يقرأها، لكنه في ذات الوقت يشعر بفخر كبير أنه وسط أناس هزُّوا دولة الاحتلال في وقت من الأوقات ويراهم بأم عينه الآن.

- استمر الأسرى بالتعريف على أنفسهم مبدين احترامهم لحسام دون التطرق لقضيته كونهم يعلمون أنه لازال يعيش لحظات التحقيق، وبعد الانتهاء من الجلسة التي تخللها توزيع بعض الحلوى والعصير على وقع الدردشة الخفيفة، انفضت الجلسة العامة وبقي حسام والأمير وحدهما.

الأمير: اسمع يا أخي، لن أثقل عليك في اليوم الأول، فأنا أعلم أنك متعب جداً وبحاجة للراحة لكنني أود فقط أن أخبرك ببعض الأمور البسيطة، حتى لا تتفاجأ، فنحن نستيقظ قبل الفجر بقليل لقيام الليل ومن ثم نصلي الفجر وفي الصباح نخرج للنزهة في الساحة ولكن الأهم من ذلك الوقوف إلى عدد الصباح حيث تأتي الشرطة لعدنا، وبإذن الله سيكون لنا أحاديث كثيرة في الأيام المقبلة.

حسام: شكرا لك يا أخ فوزي، لكنني أود سؤالك عن أهلي، فأنا في

شوق لسماع أخبارهم ولا بد أنك سمعت ما حدث في المضافة.

فوزي: وهل يوجد أحد في القارات جميعها لم يسمع بما حدث؟ لقد كانت ملحمة بطولية ومجزرة في الصهاينة سيسجلها التاريخ بأنصع صفحاته.

حسام: وهل ذكروا شيئاً عن إخوتي الصغار وشقيقتي بيسان؟!

فوزي: وفق ما جاء في القنوات الفضائية فإنهم قد حققوا مع إخوتك في البيت وقد استطاعت إحدى القنوات الفضائية الاتصال مع شقيقتك بيسان حفظها الله.

حسام متلهفا: وماذا قالت؟!

فوزي: كانت معنوياتها عالية جداً، غير أنها متأثرة لما حدث للخادمة!!

حسام: وماذا حدث للخادمة؟!

فوزي: لقد مزقت أجساد العشرات من الصهاينة وعلى رأسهم جنرال كبير عندما فجرت عبوة ناسفة في حديقة منزلكم أثناء توجهها لإحضار المسدس الذي اغتيل به الجنرال الأول، فسقطت شهيدةً جراء ذلك.

حسام مندهشا: لقد فهمت الآن سبب التركيز على الخادمة في التحقيق و....

فوزي قاطعا: اسمع يا أخي لا تتحدث بكلمة واحدة عن قضيتك لأحد حتى لو كنت أنا فلا يوجد أحد مخوّل للحديث معك عن قضيتك سوى الأخ المسؤول عن ملف الضربات الذي ستتعرف عليه في الأيام القادمة ولكن

إلى حينها عليك الانتباه إلى لسانك.

حسام: شكراً لك يا أخي وصدقني إنني سعيدٌ جداً بالتعرف عليك.

فوزي: وأنا أسعد بكثير وسأكون أكثر سعادة إن سمحت لي بالنوم.

- ضحك الاثنان وانصرفا إلى النوم، لكن حسام قد جافاه النوم بعد أن سمع ما سمع وأخذ يعبر شريط الأحداث لحظة بلحظة، حتى غلبه التعب فراح في نوم عميق جداً ليجد نفسه في ذات الحلم الذي رآه وهو في الزنزانة: أمي!! ألا زلتِ ترفرفين بجناحيك ؟!

الأم : وهل يطيب لي أن أغادرك يا حبيبي وأنت في محنتك؟

حسام: ألم يحن وقت الذهاب معك يا أمي؟

الأم: أيعجبك أن يغيب الخير تاركاً للشر أن يسود؟

حسام: لكن الشرَّ مسيطرٌ يا أمي وما عدت أقوى عليه.

الأم: بل استطعت يا ولدي وعليك أن تواجه الشرور القادمة فلا زالت الطريق مليئة بالأشواك التي عليك اقتلاعها من جذورها وعدم الاستسلام لها!!

حسام: ما أخبار حياة الصغيرة ألا زالت تلعب هناك ؟

الأم: إنها هناك تلعب في حجر فاطمة الجميلة التي انضمت إلينا على أجمل صورة كانت، الأمر الذي حسدَتها عليه حوريات الجنة.

حسام متلهفا: أقرئيها يا أمي السلام وقولي لها أن.....

- استيقظ حسام على صوت المؤذن يصدح بأذان الفجر من نافذة

الغرفة ولم يتسن له إيصال كلماته الأخيرة.

في الصباح الباكر، خرج الأسرى للنزهة الصباحية في الساحة حيث تسنى لحسام أن يلتقي بسكان الغرف المجاورة، الذين كانوا من مختلف أرجاء فلسطين، وأثلج صدره مشهداً رائعاً من مشاهد التكافل الاجتماعي بين الأسرى عندما اصطف الجميع في الساحة لتعزية حسام والترحيب به، مما أوجد في داخله شعورا عكَسَ البشاشة على وجهه عبَّرت عن رضا لما لاقاه حتى اللحظة.

- وبعد انتهاء التعزية، تقدم أسير كبير في السن تبدو عليه علامات الوقار نحو حسام، فعانقه بشدة تركت أثراً في نفس حسام: كيف حالك يا حسام ؟!

حسام: الحمد لله، يبدو أنك تعرفني يا عم ؟!

الأسير: أعرف من يعرفك جيداً ويلقى في قلبك كل الحب!!

حسام: لقد شوقتني للتعرف عليك.

الأسير: أخوك في الله، عارف القيساري من مخيم عين الحلوة.

حسام منفعلا: إذا تعرف خالي رضوان الذي استشهد في اجتياح عام ٨٢ للبنان ؟!

عارف وقد كست وجهه مسحة حزن: نعم يا ولدي كان رفيق الصباح والسلاح.

- قام حسام بتقبيل رأس عارف وعانقه مجددا وكأنه عثر على خاله.

حسام: وكيف وصلت هنا يا عم عارف ؟!

- ضحك عارف بعد أن وضع يده على كتف حسام طالباً منه المشي معه في الساحة كبقية الأسرى الذين يتمشون بشكل دائري تحت سقف من القضبان الحديدية التي تغطي سماء الساحة.

عارف: أنت أول شخص من عدة سنوات يسألني هذا السؤال.

حسام مستغربا: ومنذ متى وأنت هنا في الأسر ؟

عارف: منذ سبعة عشر عاماً تقريباً، بعد أسري في عملية فدائية قرب مستوطنة كريات شمونا على الحدود الشمالية لفلسطين مع لبنان.

حسام متفاجئاً: الله أكبر،كيف ومتى ولماذا لم تبعث لنا عن وجودك ؟!

عارف متنهداً: لقد كشفوا عن وجودي قبل ثلاث سنوات فقط عندما فضح أمر إخفائي ممرضاً درزياً يعمل في السجن السري الذي كنت فيه، حيث تدخلت مؤسسة حقوقية وأصدرت أمراً من المحكمة بالكشف عن وجودي.

حسام: وهل علم الأهل بذلك ؟

- دمعت عينا عارف لدى سماعه كلمة الأهل وقال:

لقد علمت بأن والداي قد توفِّيا قبل عشرِ سنين بالضبط، أما زوجتي التي تركتها مع ثلاثة أبناء وبنين فلقد تزوجت بعد أن وصلها نبأ استشهادي في العملية وبقي الأولاد عند عمتهم في مخيم عين الحلوة.

حسام متأثراً: أعانك الله يا عم عارف، لا أدري ما أقول لك.

عارف: لا تقل لي يا عم، فقد جعلتني عجوزاً وأنا في قمة الشباب.

حسام ضاحكاً: إذاً سأناديك بالكنية التي تحبها المهم أن تبقى شابا.

عارف: ولدي الكبير اسمه رضوان على اسم خالك الحبيب.

حسام: لو تدري يا أبا رضوان كم كانت ستكون سعادة الوالدة رحمها الله لو علمت بوجودك، لما تركت زيارتك لحظة واحدة فأنت من رائحة الطيبين.

أبو رضوان: لقد كان خالك دائم الحديث عن والدتك التي كان يحبها كثيرا كونها الصغرى من بين الإخوة والأخوات ويتمنى لو يراها قبل استشهاده.

حسام: تكلم، تكلم يا أبا رضوان، فأنت أول شخص أصادفه في حياتي ويحدثني عن خالي الشهيد بعد الوالدة رحمها الله التي كانت تحلم باللحظة التي تزور فيها قبره في عين الحلوة.

أبو رضوان: شغَفُك هذا يذكرني بخالك الذي كان يلحُّ على القائد بأن يسمح له بالمشاركة في كل عملية ضد القوات الإسرائيلية المتواجدة على حدود فلسطين مع لبنان.

حسام: وكيف استشهد خالي؟

أبو رضوان: لن أخبرك لأني إذا أخبرتك فلن أحظى بصحبتك الطيبة في ظل تلهف الجميع للتعرف عليك وسماع أخبار الناس منك وأحوالهم، فأنت أول شخص يدخل إلى قسمنا منذ سنة تقريباً، لذلك سنؤجل

الحديث إلى الأيام القادمة، فيبدو أن إقامتك ستطول عندنا.

حسام: في أي غرفة تسكن يا أبا رضوان.

أبو رضوان: في الغرفة المجاورة لغرفتكم وبالمناسبة فإني أود نصيحتك بأمرٍ هام ضعه حلقة في أذنك ولا تخبر أحداً بما سأقول !!

حسام: تفضل يا خال.

أبو رضوان: كم أنا سعيد بمناداتك لي يا خال دون شعورٍ منك وهذا يعيد لي الأمل، المهم الآن: انتبه للسانك ولا تتحدث مع أحد سوى الأخ المكلف الذي سيأخذ منك تفاصيل التحقيق، وهذا أمر روتيني يحدث مع كل أخ جديد، وإذا واجهتك أية مشكلة فأنا في الساحة.

حسام: وكيف سنوصل للأهل بأننا هنا؟!

أبو رضوان: لا تقلق، فهناك زيارات الأهل وزيارات المحامين وأيضاً وسائل أخرى ستتعرف عليها مستقبلا ولكن لا تستعجل، وإذا عجزنا فهناك أخ سيُفرَج عنه بعد عشرة أيام !!

- وهكذا سار اليوم الأول لحسام، الذي اختار أن يبقى في غرفة المصلين، رغم علاقاته الطيبة بالغرف الأخرى التي كان يسكنها اليساريون وأبناء الفصائل المختلفة، ومرت الأيام الأولى كالبرق لم يشعر فيها بالوحدة أو الأسى والحزن على ما أصابه، بل شعور بالفخر الذي أوجدته حالة التشجيع والتضامن التي لاقاها من إخوانه الأسرى.

تم نقل بيسان وإخوتها الصغار للسكن عند سعاد بعد أن تدخلت جهات قانونية بالأمر وبقي منزل أبي حسام وحديقته والمضافة منطقة عسكرية محظورٌ الاقتراب منها، وسمح للناس بالتنقل والعودة للحياة الطبيعية.

بيسان: لن أستطيع أن أمسح من رأسي مشهد كريستي - عفوا - فاطمة وهي تنظر نحو نافذة غرفتي التي تعرف أنني أتلصص منها، أثناء ذهابها مكبلة اليدين والقدمين نحو الحديقة.

سعاد: من طلب منك النسيان؟ فالناس يا حبيبتي تتمنى زوال المشاهد السيئة والمرعبة، أما فاطمة، فهي أجمل لوحة في هذا العالم.

بيسان: لقد كانت تحكي معي بعينيها، تريد أن تخبرني شيئا لكنها لم تستطع بسبب اختبائي وراء الستارة، فاستبدلت ذلك بابتسامة الرضا لما فعلَت وما تنوي القيام به.

سعاد: لعلها تطلب السماح منك لما سببته من استشهاد والديك، رحمهم الله واعتقال حسام وكل الذي ترتب بعد ذلك من أمور.

بيسان: أنتِ تحديداً يا سعاد لا ينبغي أن تفكري في هذا !!

سعاد: وبأي شكل تريدين أن أفكر؟ صحيح أنني فخورة بما فعلَتْ فاطمة ولكن هذا لا يعني أنه لم تصب عائلة بأكملها.

بيسان: صحيح أن الجرح عميق جداً ولكن !

سعاد: أكملي يا بيسان لماذا توقفتِ ؟

بيسان: لا لا يا سعاد، لم أنوي الحديث عن شيء، إنما، إنما!

سعاد: هل تخفين عني شيئاً أنا لم أعرفه؟!

بيسان: دعيني من هذا الكلام وحدثيني عن حسام.

سعاد: تريدين أن أحدثك عن شقيقك وأقرب الناس إليك.

بيسان: لا تهربي من الموضوع فأنا أقصد حسام العاشق الذي يسهر الليالي وهو ينظم الشعر في جمالك يا ليلى أخي.

سعاد: حسام، قيس قلبي وهوى الفؤاد، وهو من نفسي بمنزلة الروح.

بيسان: وكيف تشعرين الآن بعد غيابه الذي قد يطول أكثر مما تتصورين؟!

سعاد: أعلم أنك تخفين عني أشياء لا تريدين الحديث فيها، لكن كلامك يخيف!!

بيسان: الخوف يا سعاد يكمن بالهدوء عندما نظن بأن الأمور تسير على ما يرام، في الوقت الذي تنتصب الحقائق أمامنا بوضوح، فنحاول أن نتجاهلها وكأنها غير موجودة، فتبدأ بنهشنا من الداخل، تأكل حريتنا الحقيقية وترسم لنا خطوط الحياة المزيفة.

سعاد: من أين لك هذا العمق يا بيسان؟ وما هذه الرموز التي تتحدثين بها؟!

بيسان: اسألي الزيتونة التي شربَت من دم أسيل، ستقول لك كيف يولد الغضب الذي يصفع فينا الصمت والاستسلام والقبول بالأمر الواقع.

- انفعلت بيسان وكأنها لبؤة تذود عن أطفالها هجمات الضباع.

سعاد وقد حضنت بيسان بحنان:

اهدئي يا حبيبتي وخذي الأمور برويَّة، لكنني أستغرب منكِ !! فلقد كنتِ وقت استشهاد أسيل، طفلة لم تتجاوز السنوات العشر ؟!

بيسان: لكنني رأيتهم لحظة الحقيقة، عندما افترسوا أسيل بين أشجار الزيتون، حينها كنت فوق سطح الدار أرقب الأحداث بعيون طفلة بريئة، رأيتهم يركضون خلف أسيل، يمسكونها قرب الزيتونة، ويطلقون النار على رأسها من الخلف ويهربون كالفئران.

- صمتت بيسان عن الكلام وعيناها تدمعان غضبا وغيظا.

سعاد: تحدَّثي يا حبيبتي أخرجي ما بداخلك، وماذا رأيت بعد؟!

بيسان: أخذت تسقي الزيتونة من دمها المتدفق كالنهر، حينها لم أستطع الصراخ، تسمرت في مكاني، حتى الدموع أبت النزول، شعرت حينها بالحقيقة، تلك الحقيقة التي تولد مع أطفال المخيمات، مع أطفال نابلس وجباليا وجنين والخليل.

سعاد: أكنت تحملين كل هذا في قلبك الصغير ؟!

بيسان: لم يستطع قلبي حمل ذلك وحده، حتى كان...

- توقفت بيسان عن الحديث وكأنها شعرت بانزلاق لسانها عن شيء لا تريد الحديث عنه!!

سعاد: عدنا إلى الغموض، ومع ذلك، فأنتِ الحبيبة شقيقة الحبيب، ولا بد أن يأتي يوم فأسعد بقراءة عقلك وعقل حسام.

- ابتسمت بيسان وقالت لن تقرئي إلا ما سيسرك ويثلج هذا القلب الذي ينبض بحب حسام.

- انفتح باب الغرفة بقوة واندفع إلى الداخل رجال شرطة مقنَّعون، يعتمرون على رؤوسهم الخوذات، ويتسلحون بالعصي والأسلحة النارية التي تطلق الرصاص المطاطي، حيث جرُّوا حسامًا وإخوانه الذين كانوا نياماً إلى الخارج بعد أن قيَّدوهم من الخلف.

- ضابط الاقتحام يصرخ بشدة: هيا تحركوا، لا أريد أحداً بالغرفة، ضعوهم في الساحة وإذا حاول أحدهم الحركة أطلِقوا عليه النار.

- حاول الأمير أن يعترض على الاقتحام فكان في لحظات يتدحرج بين الأقدام.

الضابط: اخرس أيها المأفون، ألا تعرف أننا لا نتحدث مع أمثالك؟!

أبو محمد متدخلا: ماذا تريدون؟! ألا تعرفون التفتيش بالنهار دون عنجهيتكم هذه؟!

- وعلى الفور عالجه أحد الشرطة بضربة على رأسه أفقدته الوعي.

- انصدم حسام لما يرى وكأنه في معركة حقيقية، حيث كان يتألم من القيود التي كانت مشدودة جداً، وقد وضعه رجال الشرطة مع إخوانه في

زوايا الساحة يجلسون القرفصاء والوجوه إلى الحائط.

- حسام متحدثاً بصوت منخفض جداً مع الأمير فوزي الذي كان يتألم:

ماذا يريدون في هذا الليل؟!

فوزي: هذا بعض ما عندهم وقد تعوّدنا على ذلك، وأسأل الله أن يخرجوا خائبين.

حسام: وهل هناك ما نخشى عليه في الأسر؟!

فوزي: أقترح أن يؤجل الحديث حتى لا نتعرض للضرب والذهاب للزنازين.

- استمر التفتيش مدة ساعتين، والشباب في العراء تحت برد الليل ووجع الأيادي التي بدأت القيود تأكل من لحمها، بعدها خرج رجال الشرطة وهم يضحكون، وقد جاء ضابط الأمن إلى فوزي قائلا: لقد قلت لك أني سأعثر عليه، وقد نفذت وعدي وها هو حبيبك!

أظهر الضابط هاتفاً خلوياً صغيراً كان مخبَّأً داخل كتاب.

فوزي: مبروك عليك، يومٌ لك ويومٌ عليك، ولكن لا داعي في المرة القادمة لهذا العنف، لأنك كما تعلم العنف يولد العنف، أليس كذلك ؟!!

الضابط: أنتم الذين أجبرتمونا على ذلك عندما بدأتم بتهريب الهواتف الخلوية واستخدمتموها في أمور ممنوعة.

فوزي: ونسيت أنكم حرمتمونا زيارة أهلنا خمسة أعوام كاملة طيلة

انتفاضة الأقصى ؟!

الضابط: لا داعي للتبريرات وادخلوا للغرفة الآن.

- عاد فوزي وحسام وبقية الإخوة غير أن أبا محمد بقي في العيادة حتى الصباح.

حسام مخاطباً أبا رضوان: لماذا لم يخبروني بوجود الهاتف الخلوي؟! لقد كنت بأمسِّ الحاجة للاطمئنان على إخوتي.

أبو رضوان: لقد كان الإخوة يشعرون بأن إدارة السجن سَتُغير على الغرفة، لذلك لم يخرجوه للحديث ريثما تهدأ حملة الإدارة عليهم، وخاصة أن القسم تعرض للتفتيش قبل يوم من مجيئك.

حسام: سامحهم الله، كان يكفيني دقيقة واحدة حتى أسمع كلام إخوتي الصغار.

أبو رضوان: لا تقلق يا حسام، لقد طلبت منك الصبر سابقاً وستكون راضياً إن شاء الله المهم الآن، اخرج إلى النزهة الثانية في المساء حتى تستقبل ضيفاً عزيزاً عليك لا زال في غرفة الانتظار يمر بما مررت به لدى قدومك عندنا قبل أربعة أيام.

حسام باستغراب: من هذا الضيف العزيز، أيوجد ضيوف بالسجن؟!

أبو رضوان: أنسيت الأستاذ أحمد؟!

حسام متفاجئاً: يا الله، الأستاذ أحمد بالسجن!! وكيف عرفتم أنه هو؟!

أبو رضوان: لقد تحدث معه عمّال المطبخ الذين أوصلوا له وجبة الغداء،كما أننا رأينا صورته في التلفاز.

حسام: مسكين يا أستاذ أحمد، لقد تسببتُ لك بالمشاكل وها أنت تدفع ضريبة كلماتٍ عابرة ليس لها معنى.

أبو رضوان: يبدو أنك تحبه كثيراً يا حسام؟!

حسام: هذا الرجل، تخرَّج على يديه جميع الأجيال منذ ثلاثين عاماً، مهما تحدثت عنه فلن أعطيه حقّه وستكتشف ذلك بنفسك.

أبو رضوان: كم نحن بحاجة لمثل هذا الرجل حتى ينهض بوضعنا الثقافي والتنظيمي.

- وفي نزهة المساء، كان اللقاء عاصفاً بين الأستاذ وحسام وانعكس ذلك على بقية الأسرى الذين رحبوا بالأستاذ، وبعد الترحيب المعتاد، أخذ حسام وأبو رضوان والأستاذ أحمد يتمشون بالساحة التي كانت مليئة بكاميرات المراقبة، وقد سعد الأستاذ أحمد بالتعرف على أبي رضوان.

حسام: لماذا جاؤوا بك يا أستاذ إلى هنا؟!

الأستاذ: كما جاؤوا بك، غير أنهم يوجهون لي تهمة التحريض التي أدّت بك للقيام بما قمت به في المضافة وما أعقبه من الخادمة (حسب زعمهم).

حسام: هؤلاء ينسجون الأكاذيب من خيالهم ويريدون تلبيسنا تهماً رغم أنوفنا.

أبو رضوان: لقد بنوا احتلالهم لأرضنا على كذبة، فهل تريد منهم أن لا يكذبوا عليك؟

حسام: لقد سمعت هذا الكلام سابقاً من الأستاذ أحمد، يبدو أنكما تنهَلان من معين واحد!

الأستاذ أحمد: شرف عظيم لي أن تلتقي أفكاري مع أفكار أبي رضوان، والذي يعود أصله لقريتنا قيسارية، أليس كذلك يا أبا رضوان؟!

أبو رضوان: القلوب عند بعضها وأنتم الأصل ونحن الفرع.

- مضى خمسة عشر يوماً على قدوم الأستاذ أحمد، وقد طرأت تغيرات في القسم، حيث انتقل القسم إلى سجن آخر مما أوجب إجراء انتخابات عاجلة لجميع المجاهدين لاختيار أمير جديد ومجلس شورى، حيث اختار المجاهدون الأستاذ أحمد أميراً لهم وقد رأوا به الرجل المناسب لذلك، وقد حاول الرفض لكنهم أصروا على ذلك ووافق على قاعدة أنَّ الإمارة تكليفٌ وليست تشريفاً.

أبو محمد النابلسي وقد طلب الحديث مع حسام بالتنسيق مع أمير الغرفة:

- كما تعلم يا أخي بأن نظامنا في السجن يستوجب أن نأخذ منك بعض التفصيلات عن اعتقالك والتحقيق والاعترافات التي أدليت بها، حتى ندرسها ونخرج بخلاصة يستطيع إخوانك بموجبها الاستفادة من الأخطاء، وأنا بصفتي موجِّهاً أمنيّاً أو تستطيع القول المسؤول عن ملف

الضربات، أطلب منك يا أخي الإجابة على هذه الاستمارة.

حسام: وهل يكتبها جميع الأسرى الجدد؟!

أبو محمد: بالتأكيد، حتى القادة الكبار الذين مرّوا عندنا كتبوا ذلك، فالأمر روتيني وأظن بأنك تتفق معي بأن كثيراً من الناس لا يدري شيئاً عن التحقيق وأيضاً عن العمل الجهادي، وواجبنا أن نوصل ذلك بكل الطرق حتى يعم الوعي، والثقافة سواء بالسجن أو خارج السجن.

- بدء حسام بكتابة كل ما جرى معه في التحقيق حتى لحظة وصوله إلى السجن، وقام بتسليمها إلى أبي محمد، وقام الأخير بإرسالها إلى الموجِّه الأمني العام واللجنة العليا التي تدرس الضربات في القسم الآخر، وفي اليوم التالي جاء الرد.

أبو محمد: الأخوة يحمدون الله على سلامتك ويؤكدون ثقتهم بك، غير أنهم يطلبون تفصيلات إضافية عن أفراد المجموعة حتى يستطيعوا تحديد الخلل بالضبط الذي أدى لانكشاف نزار والأستاذ أحمد والخادمة فاطمة!!

حسام: لكن الحقيقة ما ذكرت بأنه لا يوجد مجموعة!!

أبو محمد: من حقِّك يا حسام أن تكون حذراً، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول (استعينوا على قضاء حوائجكم بالسر والكتمان) ولكن!! هذا الكتمان إذا تعارض مع مصلحة الجماعة والشعب، فلا بد من حلِّه لفترة وجيزة لأهل الاختصاص من قيادة الحركة حتى تقوم بتقييم الوضع

حفاظاً على صفوفها وصفوف الشعب.

حسام: لكنّك تطلب مني أمراً تمنيت لو كان عندي إلا أنه غير موجود.

أبو محمد: لو فعل كل شخص مثلك يا حسام، لما تعلم أحد أبداً، فأنت تجعلنا في تناقض مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم (لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين) ومع ذلك، فكِّر بالأمر يا أخي واعلم أن ما تكتبه سيبقى سراً لا يطّلع عليه أحد سوى موجِّه الأمن العام الذي سيبعث تقييمه للإخوة في الجهاز العسكري خارج السجن وبصورة مشفّرة.

- خرج حسام مخبوط الرأس إلى النزهة باحثاً عن أبي رضوان الذي أصبح متعلقاً به كخاله بالضبط.

حسام: لماذا لم تخرج في الصباح يا خال؟!

أبو رضوان: لقد كنت أحفظ الآيات الأخيرة من سورة البقرة ولم أشأ أن أضيع فرصة خلوِّ الغرفة من الشباب.

حسام: إنهم يطلبون مني أموراً لم أفعلها وغير موجودة أصلاً ولا أدري ما العمل.

أبو رضوان مبتسماً: كل الذين يأتون إلى السجن، يقعون في هذا الخوف المشروع وهذا أمرٌ طبيعي يا بني يعبِّر عن وعي وإدراك، ولكن!! المسألة بحاجة إلى أبعد من الخوف وهو أن لا يسيطر علينا الخوف فيجعلنا لا نميِّز بين إخواننا الثّقات وبين رجال المخابرات.

حسام: معاذ الله أن أشبِّه إخواني برجال المخابرات الإسرائيلية،

لكنني لا أملك ما يطلبون ولا أدري ما الذي حدث بالمضافة.

أبو رضوان: يا سبحان الله، أنت تجسِّد حديث النبي صلى الله عليه وسلم (تكاد المرأة أن تلد أخاها) أو كما قال، فأنت رضوان في حذره وضبط لسانه لكنه أمام القائد ملتزم بصورة حديدية، فالجندي يا حسام لا أسرار لديه أمام قيادته، وهكذا كان خالك رضوان رحمه الله، والآن دعنا من هذا الكلام، وحدثني عن بلدتنا قيسارية، عن شاطئها ورمالها، عن شوارعها العتيقة وحجارة بيوتها الطينية فكل ذلك مرسوم في الخيال من أحاديث الأهل في مخيم عين الحلوة.

حسام: شاطئها والرمال، لم يتغير عليها شيء سوى الأجساد الصفراء الغريبة التي تقتل لقاء اللحظات الجميلة التي عرفها الأجداد هناك، أما الشوارع والأحجار فأصبحت أثراً بعد عَيْن، غير أن مسجدها لا زال يعاند الغرباء بصموده، ومحرابه منتصبٌ كالجبال يحتضن المصلِّين رغم الذئاب التي تحاول افتراس جنباته.

أبو رضوان: وهل صليت به يا حسام؟ هل رأيت الحديقة التي تقع في الزاوية الشمالية للمسجد؟ قل لي، هل لا زالت النخلة تناطح عنان السماء وتكشف البحر؟

حسام: على رسلك يا خال، فكل ما ذكرته موجود حتى اللحظة بصورة أو بأخرى، وقد زرت المسجد مرّات عديدة وأعرف بالضبط أين يقع منزل جدي الذي بنوا مكانه عمارة ضخمة أسكنوا فيها الصهاينة القادمين من

غرب أوروبا ووسطها.

أبو رضوان: وكيف كنت تشعر وأنت تشاهد ذلك الاغتصاب؟

حسام: صدقني يا خال، إنني أحسدكم على وضعكم في المنفى!!

أبو رضوان مستنكراً: ماذا تقول؟ تحسدنا على حياة البؤس في مخيمات اللجوء؟ وأنت تعيش على الأقل بالقرب من قيسارية؟

حسام: وهنا تكمن المصيبة !! كالرجل الذي يرى اغتصاب زوجته كل يوم على مرأى منه ويموت في اليوم ألف مرة، أما أنتم في الشتات، يكفيكم أنكم قد رأيتم الاغتصاب مرة واحدة وما عُدْتُم ترون وجوه الغاصبين كما نرى ونعيش.

- في تلك اللحظات أعلن السجّان عبر المذياع عن انتهاء فترة النزهة، فبدأ الأسرى بالدخول إلى الغرف، وقد مال الأستاذ أحمد على حسام قائلا:

سآتي لزيارتك في الغرفة حتى ننهي موضوع الاستمارة الأمنية.

حسام: أهلاً وسهلاً بك يا أستاذ، فلقد أشغَلَتْك الإمارة عنا.

الأستاذ: لا شيء يشغلني عن فارس أحلام (سعادي الجميلة).

- احمَرَّ وجه حسام الذي لا زال يخجل من ذكر سعاد أمام والدها.

- وبعد الدخول للغرف، بدأت فترة الزيارات بين الأسرى في القسم، فحضر الأستاذ عند حسام وجلسا جانباً يتحدثان:

ماذا دهاك يا حسام؟ ألا تثق بإخوانك الذين زلزلوا أركان دولة

الاحتلال؟

حسام: الموضوع ليس على هذا النحو! إنما يريدون أمراً في غاية الخطورة وليس بمقدور أي شخصٍ الحديث عنه.

الأستاذ: لكنك وتجربتك لستما ملكاً لك وحدك، بل منطقُ العقل يقضي بأن تشارك الجهاز الأمني بهذه التجربة والتفصيلات، ولا أخفيك سراً أنني كتبت تجربتي في البلدة وأموراً لطالما كانت سراً لفترات طويلة، وساعدت آخرين على الكتابة أيضا!!

حسام: يا أستاذ، ألا تخشى أن تقع هذه الأسرار بيد المخابرات الإسرائيلية؟

ولماذا تحدَّثتَ بالأساس عن هذه المعلومات؟!

الأستاذ: أعرف يا حسام أنك لا زلت تعيش في حالة صدمة، ولكن يجب أن تعلم بأنك تعيش حياةً تنظيميةً وعليك أن تساعد التنظيم على فهم الأمور حتى يخرج بالعبرة التي طالما حدثتكم بروحها أثناء التدريس، فأنا يا ولدي كنت أقرأ تجارب الآخرين وأنقلها لكم.

حسام وقد اقترب كثيراً من أستاذه: أنا لا أثق حتى بأمي لو كانت أمامي، وأستحلفك بالله أن تعطيني وعداً بعدم ذكر شيء عن رسالتي لسعاد، ولا تحدِّث بها حتى نفسك.

الأستاذ: لك ذلك يا ولدي، لكني أخاف عليك من العقوبة.

حسام: أنا مستعد لكل شيء، ما دمت لا أملك ما أعطيه لأحد، كما

أنَّني أنصحك يا أستاذ بأن!

- قاطع حديثهما (أبو محمد النابلسي) الذي علم بهدف الزيارة، وطلب من الأستاذ تركهما وحدهما وكأنه شَعَرَ بعدم تجاوب حسام:

هل كتبت يا حسام ما طلبته منك؟!

حسام: أقسم يا أبا محمد أنني لا أعرف شيئا آخر غير الذي حدثتكم به.

أبو محمد بلهجة قديمة: إذاً أنت تعصي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال:(من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني) وبالتالي، فإن عدم إطاعتك تعني المعصية لله وللرسول، وهذا سيعرضك للعقوبة.

حسام: أنا أطيع الأمير والجماعة لكنني لست مستعداً للكذب.

أبو محمد: إذا كنت خائفاً، فاكتب ورقة وأغلقها بنفسك وستصل لإخوانك في الخارج كما أغلقتها أنت.

حسام: ليس لي علاقة بأحد لا في السجن ولا خارجه.

أبو محمد: يا حسام، دعنا ننقذ ما يمكن إنقاذه حتى لا تتوسع الضربة، فالإخوة في الخارج قد بعثوا أكثر من مرة يسألون عن التفاصيل، وعن بعض الأمور التي لا زالت بحوزتك، وستفيد إخوانك بها.

حسام: إنكم تتوهمون بي، فأنا أبسط من أبسط واحد في السجن.

أبو محمد: إذاً إليك قرار التنظيم: فمن هذه اللحظة، تمنع من

الجلوس مع إخوانك في الجلسات، ويحظر على الجميع الحديث معك، وهذا إلى حين صدور قرار من اللجنة العليا للتنظيم في مصيرك.

- قاطع سكان الغرفة حساماً وكأنه غير موجود، وأصبح يأكل وحده ويجلس وحده، والأنكى من ذلك مقاطعة الأستاذ له امتثالاً لقرار التنظيم، حيث اقتنع الأستاذ الذي يشارك في القرار أن ذلك قد يقنع حساماً بمساعدة إخوانه، أما أبو رضوان فكان الآخر مُلْتَزِماً بالقرار الذي نزل على صيغة منشورٍ قُرِئَ على مسمع جميع الغرف.

- حسام وقد قاطعه جميع المتواجدين في الساحة: يا خال أبو رضوان: اسمعني قليلاً إكراماً لخالي الشهيد.

أبو رضوان متأثراً: لا تُعَرِّضْني للإحراج يا ولدي فأنت مُقاطَع من الجميع.

حسام: لكنك تعلم أنني لا أستحق ذلك.

أبو رضوان: أنصحك يا ولدي بكتابة ما عندك للتنظيم حتى لا تصل إلى مرحلة الشك بك، فأنت الآن في وضع لا يحسدك عليه أحد، وإذا أردتَ أن أساعدك فليس عندي مانع.

حسام: وكيف ذلك يا خال؟.

أبو رضوان: سآتي زيارة عندك، وأسمع منك التفاصيل التي يريدها منك الإخوة دون أن تكتب حرفاً واحداً، بعدها أكتب تقييمي للضربة وأوصي الإخوة بكيفية التصرف مع السلاح وما شابه دون ذكر اسمك

مطلقاً، فأنا مصدر ثقة عليا عند التنظيم وقد عملت في هذا المجال، فما رأيك؟!

حسام: لماذا لا يريد أحد أن يفهمني؟! حتى أنت يا خال، فأنا لم أفعل شيئا وليس عندي مجموعة ولا سلاح ولا حتى حجارة.

أبو رضوان غاضباً جداً: إذاً عليك أن تواجه الأمر بنفسك والسلام عليكم.

- انصرف أبو رضوان عن حسام واشتدت المقاطعة عليه حتى جاء القرار.

أبو محمد طالباً من حسام الجلوس في زاوية الغرفة التي أغلقت بالشراشف: اسمع أيها الكاذب، لقد جاء قرار التنظيم بالتنسيق مع الإخوة خارج السجن، أن تخضع للتحقيق بعد ورود معلومات عنك بتعاملك مع المخابرات الإسرائيلية وتورطك بعملية اغتيال الشيخ صلاح شحادة.

حسام متفاجئاً: ماذا تقول؟ أأنت مجنون أم نائم؟

أبو محمد غاضباً: يبدو أنك بحاجة للتأديب، فلم يكفِك أن تعطي الإشارة للطائرة التي أطلقت الصاروخ على المنزل الذي تواجد فيه الشيخ وقتل معه الأطفال والنساء، بل ترفع صوتك كأنك بريء؟!

حسام: المعلومات التي عندك خاطئة وغير صحيحة، وهذا كذب واضح.

أبو محمد: إذاً فما هي المعلومات الصحيحة؟ تكلّم قبل أن ينفد صبري

وصبر الإخوة.

حسام: أنا بريء فقط ولست بحاجة لأثبت ذلك.

أبو محمد: أنت لا تدري ما تقول، هل تعرف معنى أن يعلم الناس أنك خائن ؟

حسام: الناس يعرفونني جيداً.

أبو محمد: سابقاً، أما الآن !! فستخسر سعاد التي يجلس أبوها في الغرفة المجاورة والذي بدأ يقتنع بأنك مشبوه بالتعاون مع الاحتلال بعد اطلاعه على المعلومات التي جاءت من الخارج.

ثانياً: ستلطِّخ سمعة عائلتك وخالك وجدّك ووالدتك.

ثالثاً: لن يقترب أحد للزواج من أختك بيسان كونها شقيقة الخائن وسينبذكم الناس.

رابعاً: ستخضع لمحاكمة فورية وفق الشريعة الإسلامية وسترى ما سيكون عليه مصيرك، فما رأيك؟

حسام: افعل ما تشاء.

- مرت عدة أيام عاش فيها حسام أشدَّ أيام حياته وهم يتعاملون معه كخائن ويحققون معه على ذلك. وقد استخدموا معه بعض العنف لكنه بقي مصمماً على موقفه الذي لم يوافقه عليه أحد ممّا أثار الشكوك حوله، وعزَّز المعلومات التي جاءت من خارج السجن، وفي اليوم الثلاثين من مكوثه عند الشباب، جاء اسمه لزيارة المحامي وهي المرة الأولى التي

يزوره فيها، وعلى الفور لبس ملابس السجن وخرج إلى الغرفة المخصصة لزيارة المحامي والواقعة خارج القسم حيث لم يسمحوا له بالتحدث مع الأستاذ أحمد حتى يسأله ما إن كان يريد شيئاً أم لا.

السجّان: أنت حسام فتحي القيساري؟

حسام: نعم، وقد طلبني المحامي.

- قاده السجَّان نحو ممر طويل وفي آخره وقف شرطيان يحملان القيود وغطاء الرأس، وعلى الفور قاما بتقييد حسام ووضع الغطاء على رأسه حتى لا يرى شيئاً، ثم اقتاداه نحو السيارة التي انطلقت به.

حسام متحدثاً مع نفسه: يا الله، ما الذي يحدث؟! هكذا يأخذون الأسرى إلى المحامي؟!

-وبعد مسيرة عدة ساعات قليلة، وقفت السيارة ونزل منها الشرطيان واقتادا حساماً إلى داخل بناية سبق أن دخلها، حيث استلمه شرطي يتحدّث بفظاظة واقتاده صعوداً عبر درجات البناية وما هي إلا لحظات حتى أدخله إلى غرفة وانصرف.

حسام في داخله: نفس الهدوء والرائحة، نفس الأجواء التي عشتها أول شهر و...

- وفجأة!! رُفع الغطاء عن رأس حسام، فإذا بالميجر عوز وكوبي ويوني ورابي يجلسون على الكراسي، ويصفقون مرة واحدة بصورة جماعية.

الميجر: أهلاً وسهلاً بالبطل الذكي الذي استطاع أن يتغلَّب على أستاذه

هذه المرة!!

حسام مستغرباً من الحديث: لم تمضِ فترة طويلة حتى تشتاقون لي؟!

الميجر: يا رجل، ألا تشكرنا على إنقاذك من عملية الإخضاع لتهمة الخيانة ؟!

حسام متفاجئاً: شكراً لكم على كل حال، فأنتم الوحيدون الذين تعلمون حقيقة الأمر بأنني لست عميلاً لكم.

يوني غاضباً: تريد أن تستمر في كذبك وتقنعنا بأنك لم تعرف أين كنت ؟!

حسام: حسب علمي كنت في السجن وأنتم من بعثني إلى هناك.

- كان الميجر ورجاله ينظرون إلى بعضهم البعض وعلى الفور طلبوا من السجَّان إنزال حسام إلى الزنزانة في الطابق الثاني.

الميجر أثناء خروج حسام: سيكون لنا لقاءات أخرى، وهناك الكثير من الأمور التي لم ننهِها بعد، كما أن يوني ورفيقيه يشتاقون لتلك الأيام.

- دخل حسام إلى إحدى الزنزانات التي يدخلها أول مرة ولم يستوعب الأمر بعد، رغم تلميحات المحققين، وما هي إلا لحظات حتى سمع بكاءً في الزنزانة المجاورة !!

حسام: ما هذا الصوت؟! نزار. أأنت نزار؟!

رد عليه نزار: نعم، نعم يا حسام أنا نزار: أين كنت طيلة هذه الفترة ؟

حسام: لقد كنت في السجن عند الشباب، لكن لماذا تبكي يا نزار؟!

نزار: هل كنت عند أبي محمد وفوزي وأبي رضوان ؟!

حسام متفاجئاً: نعم وكيف عرفت ذلك وأنا لم أرك هناك؟

نزار بلهفة: وهل كنت عندهم يا حسام؟!

حسام: لقد كتبت ما حصل معي في التحقيق لكن لماذا كل هذه الأسئلة؟!

نزار: لقد كنت عند العصافير يا حسام !! فلقد كنت عندهم قبلك.

حسام مصعوقاً: أتقصد الخونة، لا لا أظن ذلك، فقد التقيت بصديق خالي (عارف القيساوي) الذي يسكن في مخيم عين الحلوة و...

أكمل نزار: وعمره خمسون عاماً، يتحدث اللهجة اللبنانية وفي فمه سن من الذهب.

حسام: كيف عرفته يا نزار؟

نزار باكياً: لقد كان السبب في خراب بيتي هو وعارف وأبي محمد، إنهم عصافير، عملاء للاحتلال يا حسام.

حسام: مستحيل، مستحيل، لا يمكن أن يكون هؤلاء من الخونة، إنهم من المقاومة وقضوا زهرة أعمارهم من أجلنا، لا، لا يا نزار لا بد أنك مخطئ!

نزار: لقد جعلوني أكتب كل ما عندي، وعندما شعرت بأنني أرتكب خطأً، هددوني بتهمة الخيانة، حتى صدقتهم ووثقت بهم، وفي اليوم الثالث لِمكوثي عندهم، قالوا لي بأنني سأذهب لزيارة قسم آخر، فوجدت

نفسي في غرف التحقيق هنا، لأجد الورقة التي كتبتها بيد الجنرال إضافة إلى تسجيل بصوتي.

حسام يضرب على رأسه: الأستاذ أحمد !! مسكين يا أستاذ أحمد، لقد كتب لهم.

نزار: وكيف استطعت اكتشافهم؟!

حسام: أنا لم أكتشفهم ولا زلت غير مقتنع بأنهم عصافير، غير أنني لا أملك شيئاً حتى أعطيهم إياه، ولكنك لم تقل لي عن الذي كتبته؟!

نزار منكسراً: لقد اعترفت بأني بعت عشر بنادق رشاشة إلى المقاومين في طولكرم، وعدة قنابل يدوية لآخرين في قلقيلية، لكن المصيبة!!

حسام: هل يوجد شيء آخر؟!!

نزار: لقد كتبت بأني أوصلت استشهادياً إلى مدينة نتانيا وقد فجَّر نفسه وقتل سبعة جنود.

حسام: وهل أقررت بما كتبت عند المخابرات وكتبت ذلك بإفادة الشرطة؟!

نزار: نعم فعلت ذلك، فقد كنت منهاراً وعلى وشك الموت.

حسام:كان عليك أن لا تقرَّ بها، سامحك الله، ومع ذلك يجب أن تصبر وتتحمَّل مسؤولية خطئك.

- صمت حسام قليلاً ثم قال: الله أكبر، لا أستطيع استيعاب الأمر، فهم فنانون ولا يمكن الشك بهم، الآن فهمت لماذا صفق لي المحققون!

الأغبياء يظنون بأنني كشفتهم ولا يعلمون بأنني كنت مستعداً لكتابة كل شيء، ولكن الحقيقة أنني لا أملك شيئاً، ويظنون أيضاً بأنني تفوقت على الأستاذ أحمد!!

- وهكذا اجتاز حسام أخطر مراحل التحقيق، بدءاً بالتعذيب الجسدي والنفسي، مروراً بغرف العصافير وهي أنجع أساليب المخابرات الإسرائيلية لانتزاع الاعترافات من المجاهدين والمناضلين كونها تعتمد على شباب فلسطيني خان دينه ووطنه. وبات على حسام الآن، انتظار ما ألمح إليه الميجر وزمرته من المحققين، وفي ذات الوقت، عمل خلال الأيام التي تلت عودته من غرف العصافير على تهدئة نزار وإعادة الثقة إلى نفسه.

- وفي صباح أحد الأيام التي كان يجهل تاريخها، فُتح باب الزنزانة ودخل الأستاذ أحمد الذي كان يترنح من شدة الإعياء.

حسام مسرعاً تجاه الأستاذ: أستاذ أحمد حمداً لله على سلامتك اجلس، اجلس.

الأستاذ منكسراً: لقد ضاع التنظير في امتحان الواقع، انكسر أستاذك يا حسام.

حسام متأثراً: بل كان درساً جديداً وعمليّاً حتى تعلمه للأجيال.

الأستاذ: وكيف لي أن أواجه تلاميذي وابنتي وأهل البلدة وعائلات هؤلاء الشباب الذين شجعتهم على الكتابة وكان مصيرهم المؤبدات؟!

حسام: هوِّن عليك يا أستاذي الحبيب فقد انطلت المكيدة على الكثير من أبناء شعبنا، حتى أنني لم أعرفهم، ولا أستطيع استيعاب الأمر حتى اللحظة.

الأستاذ: لقد ظننت بأنني أكمل مسيرة العلم والنهضة، وقد اقتنعت بكل كلمة قالوها، لذلك قبلت بأن أكون معلماً وأميراً، ومحرِّضاً للناس على الطاعة، حتى أنني كرهتُك بلحظة من اللحظات لأنك لا تثق بإخوانك.

حسام: وهل كتبت كثيراً يا أستاذ؟!

الأستاذ: ليس المهم ما كتبت فذلك مقدور عليه، لكن المصيبة في استمرار الجهل لخطورة هؤلاء العصافير، الذين هم على درجة عالية من الثقافة والاطلاع، الأمر الذي يمكّنهم من لعب الدور على أصوله.

حسام: لا تنس أن المخابرات الإسرائيلية تزوِّدُهم بكامل المعلومات المتوفرة عن الأسير، حتى أنني شعرت من كل قلبي لدى تعرُّفي على المدعو (أبو رضوان) أنه صديق خالي فهو يعرف بعض التفاصيل العائلية والمعلومات التي تساعده على لعب الدور جيداً، هذا إذا ما أضفنا جميع ما حدث من اقتحامات للغرف والضرب، والجلسات والتكافل الاجتماعي.

الأستاذ: هل غيَّرت رأيك في أستاذك يا حسام ؟!

حسام: إذا غيرت رأيك فيَّ فلن أغير رأيي فيك وفي نصفي الآخر الذي ينتظرنا معاً !!

الأستاذ مبتسماً وهو حزين: ما خيَّبت ظني يوماً وها أنت تسبق

أستاذك.

حسام: أرجوك أن تسحب العبارة الأخيرة فقد سمعتها عند أبغض الناس على قلبي عند عوز وكلابه.

- كانت فترة الزنازين حافلة في اللحظات الفارقة في حياة حسام والتي جذَّرت في أعماقه قناعاتٍ لطالما ظلّت محلَّ نقاشٍ في داخله، فأصبح يرى الصورة في وضوحٍ تام، فكل يوم كان يرى شكلاً من أشكال الظلم والتعسف والاضطهاد، ويسمع قصصاً جديدة من أفواه المُكتوين بنار الاحتلال وزاد على ذلك، حقد المحققين الذي كان يرسم صورة هذا الغزو البغيض.

الميجر عوز: تسأل نفسك يا حسام: ما دافع هؤلاء القساة الذين لا يعرفون الرحمة، في ملاحقة كل حركة أو همسة تقترب من أمنهم أو كيانهم ؟!

حسام: لست بحاجة لسؤال نفسي فالمكتوب واضحٌ من العنوان !!

الميجر: بعد ستّين يوماً من التحقيق معك، لن أكون ساذجاً وأعاقبك على وقاحتك بل أجيب بوضوح، إن مصيرنا في هذه الأرض مربوط بإبقائكم تحت أقدامنا، وكلما رفع أحدكم رأسه، عالجناه على طريقتنا

التي تقول (اقلع الشوك قبل أن ينخزك).

حسام: وهل استطعتم طوال ستين عاماً قلع جميع الأشواك التي وقفت لكم ؟!

الميجر: سؤال مهم: ليس الأمر سهلاً، وما دمنا نقف على أقدامنا أقوياء وبمقدورنا التعلّم من أخطائنا وضرب العدو بقوة دون رحمة ومهما كلف الثمن، إذاً أستطيع القول بأننا ناجحون حتى اللحظة.

حسام: وهل تعتقد بأنَّ عناصر قوتكم هذه كافية لتحقيق التفوق حتى النهاية؟!

الميجر: أعرف يا حسام إلى أي الأمور ترمي، لكنني أودُّ الحديث معك بكل صراحة بعيداً عن دور المحقق الذي تكرهه، ففي صراعنا على البقاء، لا يحكم الأمر المبادئ والأخلاق وما تسمونه (إرادة الشعوب)، بل يحكمه القوة، والقوة فقط، فإذا كنت قوياً دامت لك الدنيا، وما دمنا نتسلح بالقوة ظلَّت هذه الأرض بأيدينا وسنظل نعمل حتى نبقى أقوياء وتبقون ضعفاء.

حسام: منطقك لا يصمد أمام منطق التاريخ الذي يقول الغلبة لإرادة الشعوب، وأنَّ عمر الاحتلال مهما طال فلن يكون أطول من عمر الشعوب.

الميجر: لكني أؤمن بالواقع الذي أعيش والذي أصنعه بيدي، وأرغم الآخرين على قبوله، انظر إلى الخارج وسترى حقائق على الأرض لا يمكن تجاوزها بحال، تل أبيب، بتاح تكفا، ونتانيا، كفار سافا، وعسقلان

وغيرهن الكثير، ملايين اليهود، ترسانة نووية تحرق الشرق الأوسط بكلمة واحدة، هذا هو الواقع الذي يبقينا أقوياء.

حسام: لذلك هربتم من قطاع غزة تحت ضربات المقاومين وانهزم جيشكم للمرة الثانية في حرب تشرين في لبنان؟!

الميجر: أحياناً، أنت بحاجة إلى صفعة توقظك من النوم، ولعل ما حصل يمثّل صفعة كنا نحتاجها لترتيب أوراقنا من جديد.

حسام مقاطعاً: أو بداية النهاية لمشروعكم الاستعماري الذي تهادى مع سقوط مقولة رئيس وزرائكم السابق شارون: «ما يسري على مستوطنة نتساريم في قطاع غزة يسري على مدينة تل أبيب» حيث انسحب من نتساريم وتبدد بالتالي حلم الحفاظ على تل أبيب!!.

الميجر غاضباً: سيكون ذلك مع آخر قطرة دم من دمائنا.

حسام: عن أي دماء تتحدث ؟! عن دماء الهاربين من الخدمة العسكرية؟ أم عن دماء مئات الألوف من الهاربين طيلة سنوات انتفاضة الأقصى والمستعربين في مدينة تورنتو في كندا أو في غيرها من دول العالم؟!

الميجر: هناك فرق ما بين الجيش الذي يرابط في مواقعه لحماية الناس والشعب الذي يبحث عن لحظات هدوء هرباً من إرهابكم.

حسام: وهل يجري ذلك على مئات المنتظمين من شعبكم في صفوف أمام سفارات في دول شرق أوروبا التي انضمت حديثاً للاتحاد الأوروبي،

يطلبون تجديد جوازات سفرهم الأصلية التي تعود لهذه الدول؟!

الميجر: أنت متابع جيد للشأن الإسرائيلي وعيوبه؟!

حسام: بل أنا طالب في كلية الإعلام التي تطلب منّا ذلك.

الميجر: وهل تطلب منك الكلية تنسيق العلاقات الفلبينية - الفلسطينية؟!!

حسام: أظن بأن حديثنا انتهى عند هذه اللحظة وأنا مستعد لجولات تحقيقكم.

الميجر: لا لا يا حسام، انتهينا من هذه الأساليب التي تجاوزتها بجدارة إلى حين، لأنك بكل بساطة ستدفع ثمن عنادك إلا !!!

حسام: إلا ماذا ؟!

الميجر: إلا إذا تعاونت معنا وسلّمت لنا الشبكة التي تعمل معها إضافة لتفاصيل العلاقة مع فاطمة، عندها ستحظى بحمايتنا وتكون واحداً منا.

حسام: أولاً ليس لي شبكة ولا أملك ما يستوجب أن أكون واحداً منكم، كما أنّك ينبغي أن تخجل وأنت تعرض عليَّ الخيانة لديني ولشعبي بعد أن قتلتم والدي أمام عيني.

الميجر: اسمع يا حسام، قد تكون قد انتصرت علينا في معركة التحقيق والعصافير، لكنك ستدفع الثمن في الوقت المناسب، واعلم أن أحداً في هذه الدولة لا يؤمن بحرف قلته عن الحادث!!

شَعَر حسام في قرارة نفسه أن الميجر قد رفع الراية البيضاء ومع ذلك

لم يشأ أن يبدي ذلك بل قال: لقد كنت بريئاً وسأظل كذلك حتى لو لم تقتنعوا بأنني لست كما تظنون، وها أنا كما تقولون قد تجاوزت مراحل التحقيق وقبلت أن تفحصوني على جهاز فحص الكذب، فماذا بعد ذلك؟!

الميجر: لقد لعب الحظ معك أنك مواطن إسرائيلي، تحمل الجنسية الإسرائيلية، وإلا لوضعتك في الاعتقال الإداري إلى ما لا نهاية، والآن: تفضل بالخروج لأن المحامي ينتظرك خارج البناية مع قرار الإفراج بكفالة، إلى حين محاكمتك على حيازة سلاح بدون ترخيص، وتذكر!! «ستدفع الثمن في الوقت المناسب».

❖ ❖ ❖ ❖

- خرج حسام من بوابة البناية الضخمة، وعيناه لا تكادان تستطيعان الإبصار من شدة الضوء، لكن وجه سعاد التي كانت تنتظر مع المحامي قد أعاد إليه النور، أما بيسان فقد قفزت على عنقه كالفراشة تقبّله وهي تبكي من شدة الفرح.

- حدّق حسام بعينيه الناعستين بفعل الظلام الذي عاشه بالزنازين، بوجوه الأحبّة الغوالي غير أنه لا زال يعيش داخل غرف التحقيق، تلاحقه كلمات الميجر عوز «ستدفع الثمن في الوقت المناسب»، الأمر الذي يجعله لا يصدق بأنهم قد أفرجوا عنه، حتى إنه احتضن بيسان بحرارة شديدة

علّها توقظه من تخوّفاته وأشباح الوحوش التي تركها قبل دقائق.

كانت سعاد تحدق بوجهه الذي كسَتْهُ لحية كثَّة تحكي قصة القصص التي حدثت في الداخل، وبكلمات متحشرجة في الصدر قالت:

- حمداً لله على سلامتك يا حسام.

فأجابها بابتسامة خرجت من كل جوانب وجهه وجسده قائلاً:

- سلامتي في أن أراك أمامي يا سيدة قلبي.

بيسان متدخِّلة: يبدو أن الزنازين قد أطلقت لسان أخي من خجله.

حسام: بل أطلقه هذا الوجه الجميل الذي رافقني في أشد اللحظات قسوة.

المحامي: أستحلفكم بالله أن تدعونا نبتعد عن هذا المكان الذي أمقته أكثر من أي شيء في الدنيا رغم أنه مصدر رزقي للأسف.

❖ ❖ ❖ ❖

- مضت سيارة المحامي تشقُّ طريقها نحو البلدة، عابرةً طريق الساحل الفلسطيني الذي يمرُّ على شواطئ البحر الأبيض المتوسط عندها كان حسام يأكل المشهد بعينيه، بكل جوارحه وكأنه يراه لأول مرة في حياته، وفجأة قال للمحامي:

- أرجوك أن تتوجه بي إلى قيسارية!!

المحامي مستغربا: البلدة تنتظرك، وتريد أن تذهب إلى قيسارية؟!

سعاد: نعم، نريد الذهاب إلى قيسارية أولاً، ولينتظر الأهالي.

قالتها سعاد وهي تنظر بعيني حسام الغارقتين في البحر.

بيسان وهي تُسِرُّ بكلمات في أذن حسام: الآن تأكدتُ بأنك حسام الذي أعرفه!

- دخلت السيارة مدينة قيسارية التي اغتصبتها قرصنة الغرباء، وتوجهت نحو المسجد نزولاً عند رغبة حسام، نزل الجميع خلف حسام الذي دخل المسجد مسرعاً، ليجد فيه أطفال روضة عربية من مدينة الناصرة، يستمعون بشغف إلى معلمتهم التي تشرح لهم أبعاد المكان، ولم يلبث سوى دقيقة واحدة حتى خرج وهو يبتسم.

سعاد وقد أوقفت حساماً: أَجْمَلُ ما فيك هذه الابتسامة، ولكن!! ألا تخبرنا عن سببها ؟!

حسام: ألم تشاهدي الأطفال داخل المسجد؟!

سعاد: رأيتهم وما الغريب في ذلك؟!

حسام: في مسجد قيسارية تولد الحقائق من جديد، لكنها في هذه المرة، ليست حقائق الذكريات وحسب، بل حقائق تجري على سواعد الأطفال، وهنا يولد الحلم الذي يصبح حقيقة ذات يوم.

سعاد: هذا عن الأطفال وماذا عنك.

حسام: أنا الآخر طفل أطلب دفء قيسارية وحنانها الساكن في

محراب مسجدها.

بيسان معترضة: أظن بأن قيسارية ترفض تأخّرنا عن الأهالي الذين ينتظرون، فهيّا بنا إلى هناك، حتى لا يقلق المحبون.

- كان العشرات من أهل البلدة ينتظرون قرب بيت أبي حسام الذي سمح الاحتلال بفتحه، والجميع يتوق إلى رؤية حسام الجديد الذي فاجأ حتى أقرب المقربين، والكل بات مقتنعاً كقناعة المخابرات والصحافة الإسرائيلية بأن حساماً مسؤول عن الذي جرى، لكن المخابرات الإسرائيلية لم تستطع إثبات أي شيء ضده، الأمر الذي مكّن محاميه من الإفراج عنه بكفالة.

أوّل المستقبلين لحسام، كان أبو أسيل الذي عانقه بشدة قائلا:

- حمدا لله على سلامتك يا ولدي.

حسام متأثراً: سلّمك الله يا والدي.

- قالها حسام وهو يشد على يد أبي أسيل، في لحظة هزت أبا أسيل من الأعماق وذرفت على وقعها عيناه، وقد لخص الموقف ما يدور في المشاعر ولا تستطيع الألسن الحديث عنه !!

- ومن ثم توالى المهنئون على عِناق حسام، ومِن بينهم الجدة والدة

أبي أسيل، والتي أصرت على رؤية حسام: حسام أقبِل يا ولدي حتى أقبِّلك، فأنت من رائحة الأجداد!!

حسام: أهلاً بجدّة الأجيال.

الشيخ حسن مزاحماً للسلام على حسام:

ونحن يا جدة؟، ألسنا من رائحة الأجداد - قالها وهو يلف حساماً بين ذراعيه -.

فأجابت الجدة: ليس مهماً أن يحمل الجميع أسماء الأجداد بل الأهم أن يبرهن كلنا أو بعضنا صدق الانتماء إليهم ولسيرتهم.

ابتسم الجميع للكلام الذي كان أوضح من أن يجهله أصغر السامعين.

طلب حسام أن يذهب إلى المقبرة حتى يزور قبر والديه اللَّذَيْن دُفنا تحت حراسة مشددة في منتصف الليل، وبينما كان الجميع يتجهون نحو القبر، عرج حسام على قبر أسيل الذي جلست بقربه والدة أسيل: السلام عليكِ يا خالة.

فانتفضت أم أسيل من مكانها وعانقت حساماً قائلة:

الآن أرى أسيل مرتاحاً في قبره، يبتسم لأروع الزائرين على وجه الأرض، حمداً لله على سلامتك يا أسيل !!

نادته أم أسيل دون شعور منها.

لم يستطع حسام الحديث وهو يرى ويسمع حميمية الناس تجاهه وكأنهم يصدِّقون قناعات الإعلام ولا يريدون تصديق روايته هو.

- كان الإفراج عن حسام عرساً حقيقياً عاشته البلدة، رغم ما حصل، ولم يتسنَّ لحسام الراحة سوى في ساعات الليل، حيث كانت لحظات ساخنة عندما أحاطه إخوته الصغار من كل جانب وهم يحضنونه ويبكون، لكن عينيه كانتا تنظران نحو بيسان التي فهمت الرسالة وأدخلت أخوتها إلى الغرفة المجاورة.

بيسان وهي تعانق حسام: لقد خفت أن لا تعود و...

حسام واضعاً يده عل فمها: ما رأيك يا حبيبتي أن نخرج حتى نستنشق الهواء؟!

فهمت بيسان أنه لا يريد الحديث داخل البيت، حيث صعدا على السطح.

حسام منفعلاً: كيف كانت آخر لحظاتها؟ أشاهدتِها يا بيسان؟! أقالت لك شيئاً؟!

بيسان: ليتني كنت معها، سامحك الله، لقد حرمتني فرصة العمر!

حسام: ما كنت تستطيعين القيام بما قمت به، والآن أجيبيني بسرعة.

بيسان: لقد أصرت على رؤيتي والحديث معي، حتى تُعلمني بأن الأمور تجري وفق الخطة.

حسام: وكيف تدحرجت الأمور على هذا النحو حتى استخدمت خطة الطوارئ؟!

بيسان: لقد كشفتها أختها الصغيرة وهي تنسحب مسرعة من المطبخ.

حسام: وهل قمت بدورك كما يجب؟!

بيسان وهي تبكي: نعم يا قائدي.

حسام: لماذا تبكين يا حبيبتي؟!

بيسان: لقد تذكرت أمي وأبي وآخر نظرات لفاطمة!

حسام: عن أي نظرات تتحدثين؟!

بيسان: نظرات فاطمة نحو نافذتي أثناء ذهابها لتنفيذ خطة الطوارئ في الحديقة، حيث كانت تريد إخباري بشيء لكنها لم تستطع رؤيتي.

حسام واضعاً رأس بيسان على صدره: لا بأس يا حبيبتي فقد عرفتُ ما أرادَتْ قولَه.

بيسان: ما هو يا أخي؟!

حسام: أنسيت القاعدة الثانية التي علمتُك إياها ؟!

بيسان: أعتذر منك يا أخي «فالمعرفة على قدر الحاجة».

حسام: أعلم يا حبيبتي بأنكِ أبليتِ بلاءً حسناً في التحقيق ولكن أحذِّرك بأن البيت مليء بأجهزة التنصُّت، فالقوم لن يتركونا حتى يَصِلوا إلى الحقيقة، لذلك عليك الانتباه جيداً وعدم الحديث معي مطلقا بشأن ما حدث.

بيسان: والأمانة؟!!

حسام : أبقيها في مكانها حتى يأتي الوقت المناسب للخلاص منها.

بيسان: ألا نستفيد منها في المستقبل؟

حسام: لا تقلقي على المستقبل، حينها سنوفر له ما يجب ولكن الآن، أسمِعيني، قاعدتنا الأولى.

بيسان: لا أسمع، لا أرى، لا أتكلم..

حسام: والآن دعينا نذهب للحديقة حتى نشتم عبير فاطمة.

جلس حسام على الأرض قرب شجرة البرتقال، وأمسك التراب بيده ونثره على جسده وهو يردد: والله ما خذلتك يا فاطمة ولا كنت جبانا!!

بيسان: هوِّن عليك يا أخي، لا تُثقل على نفسك فقد رَحَلَت وهي تبتسم.

حسام: لكنها معركتنا قبل أن تكون معركتها ومع ذلك ضحَّت من أجلنا، فهي علمت أن السلاح خانني ورفض أن يعمل ؟! هل علمت أنني ما تراجعت أبدا؟!

بيسان: لم يشأ الله عز وجل أن ينتهي أَجَلُك، فأخَّرك إلى خير لا نعلمه.

حسام: حسبها أنها قد حققت أمنيتها بالشهادة على أرض فلسطين، وقد ساقها الله عزَّ وجل إلينا من آخر الدنيا، أما نحن فلا زلنا على وجه الأرض.

بيسان: ألم تقل لي يا أخي إننا أهل الانتظار المقصودون بالشطر الأخير من الآية الكريمة التي تقول: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا» صدق الله العظيم؟! فالقطار لم يفت بعد، ولا زال العدو موجوداً.

حسام: هل علمَت سعاد بشيء؟

بيسان: لا، لكنها ككل البلدة يعتقدون بأنك المسؤول عما حدث.

حسام: ومع ذلك يجب أن نتعامل بحذر حتى مع أقرب الناس إلينا: فالقاعدة الثالثة تقول؟!

بيسان: «الثقة لا تلغي الحذر».

- مضت الأيام الأولى للإفراج والناس لا زالوا يتقاطرون إلى منزل حسام لتهنئته بالإفراج، ولم يشغله ذلك عن شطر قلبه سعاد، التي كانت وإيناس تساعدان بيسان في ضيافة الناس، وقد علم الجميع بأن حساماً قد خطب سعاد من أبيها وهما في الزنازين، وإلى حينها لم يستطع حسام الحديث بحرية مع سعاد حتى صباح ذلك اليوم.

وقف حسام أمام الباب ويده تتردد في القرع على الجرس وقلبه وجسده مضطربان، وفي لحظة جريئة قرع الجرس.

سعاد بصوت عال من داخل البيت: إذا كنت إيناس فتلك مزحة حمقى!! سأضربك عليها.

قالتها سعاد وهي تقترب من الباب وبيدها صحن مليء بالصابون وعلى رقبتها رداء المطبخ، وما إن فتحت الباب حتى وضعت يدها على فمها، فامتلأ وجهها الجميل بالصابون.

تسمَّر حسام مكانه وهو يرى القمر على حقيقته.

سارعت سعاد بالرجوع إلى الخلف معتذرة من حسام، فأمسكها من يدها: أحمق من يرى النور ويختار المكوث في الظلام.

ومد يده الحانية على وجه سعاد ماسحاً بقايا الصابون، طالباً منها الخروج معه إلى ساحة البيت.

كانت سعاد أشبه بالنسمة التي تداعب الورد وأزهار اللوز، وقد تورَّدت وجنتاها من فرط الحياء والمفاجأة، فطلبت متلعثمة أن تغيب دقيقة واحدة.

جلس حسام مشطور الفؤاد والتفكير يهيم بحب ساحرته، ويحنُّ إلى أستاذه الذي يراه في جنبات الساحة، لكن ضحكة قفزت من أعماقه، سيطرت على فضاء جلسته وقد تزامنت مع قدوم سعاد.

- أرجو أن أكون سبب سعادتك؟!

حسام: وقد وقف على قدميه ممعن النظر في عينيها:

- أنت، أنت ..

لم يستطع نطق الكلمات التي تعطلت أمام لغة العيون، وسحر الشفاه التي بدت كنهر متدفق على أرضٍ ظمأى غاب عنها الغيث منذ قرون، وسرعان ما تدارك نفسه قائلاً:

من يراك لا يشعر بالسعادة، فقد عميت بصيرته وانطفأ نور عينيه.

سعاد بعد أن جلست قبالته على استحياء: لم أكن أعلم أنني أسكن في

كلماتك الجميلة هذه!!

حسام: لا تظلمي قلبي والروح فأنت بهما والكلمات مغارف القلوب.

سعاد: لكنك لم تقل لي سبب ضحكك؟!

حسام محرَجاً: أرجو أن تؤجِّلي السؤال لوقت آخر فالإجابة لا تستقيم مع هذه اللحظة.

سعاد: وإذا ضمنت لك أن تبقى اللحظة هذه ما حييت فهل تقول لي سبب ضحكك؟!

حسام: لقد غلبتِني ولكن أرجو أن تصحبيني أولاً إلى مدينة الناصرة وهناك سأقول لك السبب.

- وبينما كانا يهمَّان للخروج من ساحة البيت ولا تكاد العيون تنفك عن عناقها، فإذا بإيناس تدخل.

قالت وهي تبتسم متفاجئة: لقد تخلَّيتِ عني بهذه السرعة، وتخرجين دون إعلامي؟!

سعاد ضاحكة: ألا تسلّمين أولاً؟

إيناس: لمثلكما فقط يكون أكثر من السلام.

حسام: أَرَضِيتِ عنَّا الآن يا إيناس؟!

إيناس محرجة: نحن نتوق لرضاكم يا أخي.

سعاد: هل تتشرفين بالمجيء معنا إلى الناصرة؟!

إيناس: وماذا يفعل مثلي بين طائرين جميلين، أتمنى لكما التوفيق من

كل قلبي ولكن!!

سعاد مستغربة: ولكن ماذا أيتها الشريرة؟!

إيناس متوجهة بكلامها إلى حسام: احذر يا حسام فأنت مراقب من جانب الصهاينة، ولقد رأيت شخصاً مشبوهاً يقف أول الطريق.

حسام: لا تقلقي يا إيناس، فهم يتابعونني منذ أن خرجت من التحقيق.

إيناس: لكنهم لن يسكتوا عنكَ يا حسام، وأنت تعرف ذلك جيداً.

سعاد: أرأيتَ يا حسام من هي إيناس؟

حسام: أليست صديقتك يا حبيبتي.

سعاد باسمة: أسمعت الكلمة الأخيرة؟! أرضيت الآن يا.....

إيناس مستأذنة للذهاب قبل أن تكمل سعاد العبارة وقد امتلأت خجلاً.

حسام وهو يسير على جانب الطريق مع سعاد: عن أي شيء ترضى يا ملاكي؟!

سعاد مبتسمة: اعذرني فلن أستطيع الإجابة إلا في الناصرة !!

ضحك الاثنان ومضيا وقد التحمت يداهما معا في تكامل لمشهد الهوى العذري.

وبينما كانا يسيران في أسواق الناصرة العريقة التي تحكي قصة

صمود في وجه الاحتلال.

سألت سعاد: ألست خائفاً يا حسام؟!

حسام: ليس بالقدر الذي يمنعني من ممارسة حياتي، لكنني مع ذلك خائف عليك!!

سعاد: أتخاف عليَّ وأنت المستهدف وينتظرك تهديد المخابرات؟!

حسام: أخاف أن تغيب ابتسامتك الساحرة حال نفَّذوا تهديدهم، ويذبل وردك الجميل؟!

سعاد وهي تحضن ذراعه بقوة: شمسك لن تغيب عني مهما تباعدت الأجساد.

وفجأة!! طلب منها حسام عدم الالتفاف للخلف والدخول معه إلى دكان لبيع الملابس ممتلئٌ بالزبائن، وقد غطت الألبسة مدخله الرئيسي، وما هي إلا لحظات حتى خرجا من مدخل آخر للدكان يطلُّ على طريق مختلفة وغادرا المنطقة.

سعاد مستغربة: ماذا فعلت يا حسام؟!

حسام بثقة: هذه أول خطوة في قاعة كسر التعقب، ألم تَرَي الذي يراقبنا؟!

سعاد: بدأت أفهمك يا تلميذ أبي، وأفهم قانون معركتك مع الاحتلال.

وفجأة!! أطلق حسام ضحكة بأعلى صوته.

سعاد بعد أن توقفت: لن أتقدم معك خطوة واحدة حتى تقول لي عن

سبب الضحكتين. في البيت وهنا!

حسام محرجاً: عندما كنا في الزنزانة كان لِحمار الأستاذ أحمد نصيبٌ وافرٌ من الحديث الذي خفَّف عنا أصعب اللحظات، وعندما كنت في ساحة البيت شاهدتُ الحمار.

- قاطعته سعاد وهي تقرصه من يده: أيذكرك أبي بالحمار أيها التلميذ العاق؟!

رد حسام خجلاً: صدقيني أن المسألة تتجاوز هذا المفهوم فالأستاذ أحمد بمثابة أبي ومعلمي وفوق ذلك، أنجَبَ شطر قلبي الذي ينبض أمامي الآن.

سعاد مبتسمة: وأين كان لسانك هذا ونحن في الجامعة؟!

حسام وهو يمسك بكف سعاد: ينتظر هذه اللحظات الجميلة حتى يقول قولته.

- كانت سعاد سعيدة جداً لا تريد أن يعكر صفو سعاتها أي تفكير آخر، سوى أنها إلى جانب حبيبها الذي تدرك أنه في خطر، وكان عليها أن تتقبل هذا الواقع الذي دخلت عليه عن وعي وإدراك تامَّيْن.

- قطع حسام سرحانها البسيط المسحوب بابتسامة تخرج من أعماق أعماقها سائلاً: والآن: جاء دورك يا نجمتي الجميلة! فما الذي يُرضي إيناس؟!

سعاد برقة: أنت تناديني حبيبتي، فقد كانت تستغرب حبنا العذري

الذي خلا من لغة الشفاه.

وفجأة! وقف حسام عند عجوز يبيع السكاكر على يديه وسأله كم السكاكر يا عم؟!

البائع العجوز الذي يرتدي نظارات سوداء: ما تجود به نخوتك يا بني!

حسام: أتكفيك أربعة وعشرون شيقلاً؟!

البائع: الزيادة بالكرم من شيم الكرماء.

حسام: إذا فهذه خمسة وعشرون «والشكر» زيادة!!

البائع: العفو لك يا ولدي واهنأ بعروسك.

- ناوله حسام النقود إلى قبضة يده مباشرة وأخذ السكاكر وانصرف، حيث كانت سعاد تنصت للحديث الطبيعي مستغربة بذكائها:

ما هذا يا حسام؟! أفهم ولا أفهم!!

حسام: أتثقين بي يا حبيبتي؟!

سعاد: لو كنت غير ذلك لما قبلت بك.

حسام: إذًا تعلمي في هذه المرحلة ولا تجهدي نفسك بمعرفة ما ليس ضرورياً لك.

- سعاد وقد نظرت لخلفها ولم تجد البائع: لكن !

قاطعها حسام: لن ترينه مرة أخرى على هذا الشكل، فقد أدى مهمته وذهب.

- كان العجوز حلقة الوصل «النقطة الحية» ما بين حسام وحلقته

التنظيمية الضيقة جداً، وقد تحادثا بشيفرا كلامية التي يعرفونها لن يستطيع حسام تسليمه رسالة بيده، والحلقة هذه التي حاول العصافير كشفها من خلال انتحال شخوص رجال التنظيم.

- بعدها دخل الحبيبان على صائغ الذهب حتى يختارا الخاتمين.

حسام: اختاري يا حبيبتي ما يروق لك.

سعاد: وهل تقبل بما أختار؟!

حسام: مجنون إذا رفضت ما أشارت إليه عيناك القاتلتين.

سعاد: وقد أمسكت بيده وغادرت المحل فوراً.

حسام: ماذا تفعلين يا سعاد، لقد أحضر الرجل الخواتم؟!

سعاد: مكانك ليس في إصبعي، أنت هنا في القلب، والوجدان، فلا أريد أن أكون في عشقك نسخة عن نساء الدنيا، بل لوحة جديدة من الحب، لا تحدُّه حدود ولا تقيِّده أعراف، فازرعني في عينيك نوراً وفي قلبك نبضاً وفي صدرك رئة، فلا أَنْفَكُّ عنك ولا تنفَكُّ عني.

حسام بخشوع: يا ويح قلبي إن غاب عنك لحظة واحدة، ألا تخشين على نفسك وأنت تعرفين الخطر المحدق بي؟!

سعاد: أتذكر يوم قلت لك في الجامعة بعد أن دافعتَ عني في وجه المتطرفين الصهاينة، إنني لا أقبل أن يكون دفاعك عني كوني بنت بلدتك وأستاذك وحسب؟!

حسام: نعم أذكر، وقد أحببتك لأنكم الثلاثة جزء عزيز من وطني

وقضيتي.

سعاد: حينها أقسمت في داخلي أن أحبك حباً لم تشهده الدنيا، وبعد أن حصل ما حصل معك، لم يعد يهمني ما يحدث لأن حبّي لك تجاوز حدود الجسد إلى عالم الروح.

حسام: مقترباً من وجه سعاد: هذا رأيكِ وحدكِ يا ملاكي الطاهر، أما رأيي فسترينه قريباً عندما يؤوينا سقف واحد أيتها العاشقة التي فاق عشقها العاشقين الأوائل.

- أطرفت سعاد رأسها خجلا وأغلقت فمها الجميل عن الكلام بعد أن أسكتتها الكلمات الأخيرة.

- عاد الحبيبان إلى البلدة، وأمام بيت سعاد، كانت حكايات الهيام تُتَرجِم نفسها بِصمت العيون التي أبت الهدوء والانصراف وأبقت لجنون العشق بعضاً من الجنون، حيث الاثنان في واحد يرفضان الانفصال، حتى نطقت سعاد بشهد شفتيها كلمة السلام، فانصرف حسام مقتولا بسهام الهوى.

في طريق عودة حسام تصادف مع أبي أسيل والشيخ حسن يرافقهما أبو سليم، متوجهان للقائه.

حسام: السلام عليكم.

الشيخ حسن: وعليكم السلام يا بني، لقد جئنا لرؤيتك.

حسام: أهلاً وسهلاً بالطيبين، على الرغم من أنني أخاف عليكم من الخواجات.

أبو سليم بقوة: بعد الذي حصل، فليفعلوا ما يشاءون على حذائك يا ولدي.

أبو أسيل: عمك أبو سليم مشتاق إلى الأستاذ أحمد!

ضحك الجميع على إشارة أبي أسيل ، ودخلوا إلى بيت حسام.

الشيخ: اسمع يا ولدي نعرف أنك في وضع صعب ومُقبِل على فترة أصعب بحاجة إلى تغطية مادية لذلك...

قاطعه حسام: لا تكمل يا شيخ حسن، فوالله إن زيارتكم هذه ووقفتكم معي ومع أختي لهي أغلى عندي من كنوز الدنيا.

أبو أسيل: ومع ذلك، فإنك بحاجة إلى مبلغ جيد لتسيير أمورك، وقد شكلنا صندوقًا خاصا لمساعدة الذين اعتقلوا على إثر المعركة التي حدثت، وبخاصة أبناء البطل نزار الذي ختم سيرته على أفضل ما يكون.

حسام متأثراً: الآن بدأت معركتنا الحقيقية مع الاحتلال.

أبو سليم: لقد بدأت منذ بعيد، ولكن كانت تنتظر من يعلّق الجرس وقد كان، ولن نهدأ بعد اليوم.

حسام: وفروا ما لديكم من مال، وعمموا التجربة على المدن والبلدات

الأخرى، فالمرحلة القادمة أشد بأساً من المراحل السابقة، أما عني فلديَّ ما يكفيني وأخوتي من مال قد تركَه والدي رحمه الله، وسيصلكم جزء منه بإذن الله.

الشيخ: يقترح بعض الإخوة في مدينة الطيبة أن يسمُّوا شارعاً باسم الشهيدة فاطمة، متحدِّين بذلك سلطات الاحتلال فما رأيك؟!

حسام وقد دمعت عيناه: فاطمة حجّة علينا يا شيخ، فلنزرع ما فعلت على سواعدنا وعقولنا.

أبو سليم متدخلاً: يجب أن نصبح جميعنا فاطمة.

أبو أسيل: على رسلك يا رجل، دع الأمر لأهله ودعنا ننجز ما بدأنا به، فعملنا لا يقلّ أهمية عن ما فعلته فاطمة، فبدون المال لن يؤمِّن الأحرار على أسرهم حال أَسْرِهم أو استشهادهم.

حسام: ما يقوله أبو أسيل صحيح ولكن! أودُّ الإشارة إلى عدة أمور هامة فأنتم الآن تسألون عن سبب جلوسنا في الحقيقة؟!

الشيخ: لماذا يا ولدي؟

حسام: لأنهم يتجسسون عليَّ وهذا ما أود تحذيركم منه، «العملاء»، سواء البشر أو عالم الأزرار، فاحذروا منهم واعتبروا أنهم موجودون في كل مكان، لا تتحدثوا بشيء يتعلق بعملكم الوطني في الهواتف أو أمام أي كان، واجعلوا دائرتكم ضيقة وابدأوا بجملة توعية النية وانشروا الدراسة التي أخرجها الأستاذ أحمد عن العصافير والتحقيق بين إخوتنا وأخواتنا.

- غادر الثلاثة بيت حسام وجميعهم يشعر بثقل المسؤولية التي حملوها في هذه الجلسة على أن ما أشار إليه حسام عن المستقبل الأشدّ بأساً أشعل لديهم ضوء الجدية التي تتجاوز مسألة المساعدات!!

بيسان وهي تجلس إلى جانب حسام تحت شجرة البرتقال في الحديقة:

هل بدأت بركات فاطمة ومعركة المضافة، تؤتيان ثمارهما ؟!

حسام: ألا تشاهدين ثمر البرتقال كيف ينمو على هذه الشجرة؟!

بيسان ونظرها لأعلى: ليس غيري يراها.

حسام: خرجَت من بين الجذوع المحترقة، حتى تنشر الأمل في الحديقة، وأرضنا المحتلة، تنجب الآن آلاف الزهرات التي خرجت من بين الأشواك، فمنها ما نعرفه ورأيتُه قبل قليل في عزيمة الشيخ ورفيقيه، وسترين أكثر في الأيام القادمة، ومنها ما ستراه رؤوس وأجساد المحتلين.

بيسان: وهل سأكون زهرة منهم؟!

حسام: أنتِ يا حبيبتي وردة فاقت الزهور برونقها، وتجاوزت غيرها بكثير.

بيسان: دعني يا أخي أُريهم بأس فاطمات قيسارية.

حسام: اسمعي يا بيسان، معركتنا مع المحتل طويلة جداً، أطول مما

تتصوره عزيمتك الرائعة، وفي هذه المعركة ينبغي أن نحافظ على جميع طاقاتنا وأوراقنا ونستنفدها في وقتها، وأنت يا حبيبتي ومثيلاتك من الحرائر يُلقى على عاتقكنَّ ما هو أشد من معركة السلاح في هذه المعركة!!

بيسان: ولماذا درَّبْتَني يا أخي وأعطيتني جزءاً من معركة المضافة؟!

حسام: لأن واجب الساعة والضرورة اقتضت أن يكون لك دور، وهذا الأمر يمكن أن يتكرر في المستقبل معك ومع أخواتك الحرائر.

بيسان مبتسمة: هكذا يكون الكلام الجميل يا أجمل أخ على وجه الدنيا.

حسام: ولكن!! ينبغي أن لا تهملن دوركن في التحريض والحث على المقاومة، وتربية الأجيال المقاتلة التي ستدُكُّ العدو في مقتله، وهذا أهم من معركة السلاح لأن المقاتل الذي لا يستند إلى أم تدعمه أو أخت مثلك تشجعه أو زوجة تخفف عنه لدى خروجه لتنفيذ العمل، سيكون ظهره مكشوفا.

بيسان: لقد جهزت لك الأمانة كما طلبت!!

حسام: سآخذها الليلة - إن شاء الله - بعد ساعتين من الآن.

بيسان واضعة رأسها على رأس حسام:

انتبه يا أخي فلا زال تهديدهم قائما.

حسام بعد أن قبَّل رأس بيسان: صدقيني يا حبيبتي إن كل لحظة أعيشها منذ المعركة، هي زيادة في عمري، وقد وطَّنْتُ نفسي للحظة

الشهادة، فلا تقلقي وكوني مطمئنة فسأشفع لك، ألستُ شهيدا؟!

بكت بيسان وهي تقبل يد حسام.

حسام: لقد ضربناهم في مقتل، وفتحنا في هذا البيت صفحة جديدة، سيكتب فيها الأحرار بدمائهم كلمات الحرية.

بيسان: ألا تختفي يا أخي ولو لبعض الوقت؟

حسام: لو كنت غير أنا لفعلت، لكنني يجب أن أكمل ما بدأته بصورة تصبح أنموذجاً للأجيال القادمة حتى إذا ما نفذوا تهديدهم، يولد ألف حسام، ألا تحبين رؤيتي بين الأصبع والزناد وكل طلقة تستقر في جسد محتل؟!

بيسان: أنت لست من هذا الزمان يا أخي.

حسام: بل منه والدليل عزيمتك التي تطلب الشهادة.

- فجأة تذكر حسام أمراً هاماً، وأخرج من جيب ردائه الداخلي «حذاء حياة».

بيسان: ألا زال معك يا حسام؟!

حسام: هو لك الآن، ورِّثيه لأطفالك وأطفال أطفالك، قولي لهم عن حياة الصغيرة وعن حيِّ الدرج في غزة، لا تفرِّطي به يا بيسان.

بعد منتصف الليل، أحضرت بيسان الأمانة إلى حسام.

بيسان وعيناها تدمعان: خذ يا أخي، فوَ الله إنها أشدُّ اللحظات قسوة على نفسي.

حسام وقد أخذ المسدس الذي قتَلَتْ به فاطمة الجنرال وقام بتقبيله: وعلى نفسي أيضاً، لكنها الضرورة يا حبيبتي.

ذهب حسام تحت جنح الظلام وهو يحتضن المسدس احتضان الأب لابنه، حتى يقوم بإتلافه بصورة محكمة كي لا يقع في يد الصهاينة، وفعل ذلك وقلبه ينفطر ألماً على ذكرى فاطمة ومعركة المضافة.

مرت عدّة أشهر على خروج حسام من الأسر، حيث حوكم الأستاذ أحمد بالسجن مدة عام، أما نزار فقد حوكم بالسجن سبعة مؤبدات وعشرين عاماً وذهب الاثنان إلى سجن نفحة في صحراء النقب جنوب فلسطين.

وذات ليلة بينما كان حسام غارقاً في نومة عميقة فإذا بصوت جميل ورقيق ينادي من السماء:

- حسام، حسام استيقظ قبل فوات الأوان.

نظر حسام صوب الصوت الذي سبق أن سمعه فإذا بفاطمة، تجلس على كرسيٍّ مِن ذهب، وعلى رأسها تاج فائق الجمال، ومن حولها مئات الحوريات والشهداء:

- فاطمة؟! أأنت فاطمة الشهيدة؟!

فاطمة: نعم يا قائدي الشجاع، وهذه أمك الجميلة وحياتك الصغيرة، إنهما ترفرفان بأجنحتهما من حولي.

حسام: والله يا فاطمة إنني ما.....

قاطعته فاطمة برقة ملائكية قائلة: ألا تؤجِّل ذلك حتى تحضر عندنا؟! فالنبي صلى الله عليه وسلم والشهداء ينتظرونك!! ألم تشتق إلى لقياهم ؟!

حسام فرحاً: أحان الوقت يا فاطمة؟!

فاطمة: كل الأحبة ينادونك، ألا ترى العرس الذي ينتظرك؟!

حسام: وهل أستحقُّ ذلك؟!

فاطمة: أنتَ منّا ونحن منك يا حسام.

حسام: وهل كل ذلك من أجلي؟!

فاطمة: من أجلك ومن أجل !

استيقظ حسام فزعاً على طَرَقات بيسان:

استيقظ يا أخي بسرعة وافتح التلفاز.

حسام: سامحك الله يا بيسان ألا تنتظرين قليلا؟!

بيسان: افتح التلفاز وسترى.

فتح حسام التلفاز على قناة العدو الفضائية.

ما هذا ؟! الله أكبر، الله أكبر.

بيسان: يعلنون عن اغتيال رئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي -السابق - في بيته وهو نائم على سريره مع كلبه وزوجته.

حسام: لقد ورَّد الزهر يا بيسان، لقد ورَّد الزهر.

بيسان: بل أصبح برتقالا يا أخي، برتقالا قيساريّاً، يافاويّاً وحان

القطاف.

قفز حسام عن سريره واحتضن بيسان وأخذ يرقص ويرقص كيوم عرسه الموعود مع سعاد.

وفي صباح تلك الليلة الجميلة اتصل حسام هاتفياً بسعاد:

هل قمري جاهز أم أن الليل لم ينقضِ بعد؟!

سعاد: قمرك لا يقاوم شمسك الساطعة ولا لهيب شوقك الحارقة.

حسام: إذن طلّي علينا من الباب فالشمس تنتظرك في الخارج وهي تركب السيارة الجديدة.

سعاد فرحة جداً: هل اشتريتها ؟!هل أصبح عندنا سيارة؟!

حسام: جهّزي نفسك أيتها العروس الجميلة حتى تكونين أول من يركبها.

جلست سعاد إلى جانب حسام، وكانت كالملاك الطاهر، تشع بهجة وتنطق من وجهها وجسدها آيات الجمال.

لم يستطع حسام إنزال بصره عن لوحته الفاتنة فصرخت عليه برقة:

لقد أخجلتني يا رجل، ألا يستقيم اللقاء معك دون قتلي بعينيك هاتين؟!

حسام: لا أستطيع يا سعاد، لا أستطيع، فأنت...

سعاد مقاطعة: أنا من تحبك أكثر من نجوم السماء، والآن ؟!

حسام: ألم تشتاقي إلى رؤية البحر عن ظهر جبل الكرمل؟!

سعاد: أشتاق إلى رؤيته معك رغم أننا وقفنا عليه مئات المرات فرادى أثناء الدراسة في جامعة حيفا.

مضت السيارة وكأنها حجرة في قصر من قصور الجنة.

حسام: هل أنت سعيدة يا حبيبتي؟!

سعاد: عندما أسمع صوتك وأراك أمامي، لا أحسب أنني أعيش على ظهر الأرض بل في مكان فوق الوصف.

حينها تذكَّر حسام ليلة الأمس وحديثه مع فاطمة ودعوتها له بالتعجيل بالقدوم والعرس الذي ينتظره وينتظر.

سعاد ملوِّحة بيدها: أيها الشارد أين ذهبت؟! أتفكر بشيء غيري؟!

حسام: لا يا حبيبتي بل في المكان الذي فوق الوصف.

سعاد: أينما يكون، المهم أن نكون معاً حتى لو في القبر.

حسام: أو في الجنة يا سعاد.

سعاد: وأكون سيدة الحور العين، أليس كذلك أيها الشقي؟!

حسام مبتسماً: وتعرفين ذلك أيضا؟!

سعاد: نعم وقد عملت طيلة الفترة السابقة أن أقلّد طاعاتك في كل شيء، حتى إذا جاء يوم الحساب فلا نفترق أبداً، ولا تأخذك غيري.

ضحك حسام بأعلى صوته: وغاب عنك أيتها الجميلة أن الطبائع البشرية لا مكان لها في الجنة؟!

سعاد مبتسمة: المهم أن أكون سيدة قلبك في الأرض والجنة.

تنهد حسام عميقا وقال: وأنت كذلك يا حبيبتي فمن يدري..

لم يكمل حسام الجملة، لأن سعاد صرخت عليه:

انتبه يا حسام فهناك شاحنة حاول تجاوزها؟؟

كان حسام يصعد جبل الكرمل الشاهق عبر طريقه الضيقة ويعلم تماما خطورة الطريق، فأسرع قليلاً حتى لا يسمح للشاحنة بتجاوزه.

حسام وهو ينظر بالمرآة: يبدو أن الشاحنة تصر على تجاوزنا!

سعاد: انتبه جيداً يا حبيبي فالطريق وعرة جداً.

اقتربت الشاحنة كثيراً إلى مؤخرة السيارة وحاولت الاصطدام بها.

حسام مرتبكاً: تمسّكي جيداً يا سعاد، فالسائق يتعمّد ضربنا من الخلف.

سعاد: ألا نتصل بالشرطة يا حسام؟!

حسام: لن يفيد ذلك يا حبيبتي، ولكن!!

سعاد: ولكن ماذا؟!

حسام: افتحي بابك واقفزي بسرعة، قبل فوات الأوان.

سعاد: وأنت يا حسام؟!

حسام: لن نستطيع الاثنان، فافعلي ما أقوله لك الآن وأخبري العالم ما حدث.

سعاد: لن أتحرّك دونك مهما حصل، ولا تحاول معي، نعيش معا أو نموت معا.

نظر إليها حسام بكل ثقة وقال: إنها الشهادة يا سعاد، إنها الشهادة.

سعاد: فلنستقبلها بشجاعة، ونلقى الله معاً.

طلب حسام من سعاد أن تتصل بأبي أسيل وإخباره:

إنهم يحاولون دفعنا إلى الوادي، إنهم ينفّذون تهديدهم!

أبو أسيل مرتبكاً: حاولوا الالتصاق بالجبل يا ابنتي، لا تفتحوا له المجال لدفعكم نحو الوادي.

سعاد صارخة: لا نستطيع، لا نستطيع فالشاحنة قوية وضخمة.

أبو أسيل: حاولوا القفز يا سعاد، حاولوا القفز.

وفجأة! ظهرت شاحنة أخرى من الجهة المقابلة فأطبقت الخناق على سيارة حسام الأمر الذي مكّن الشاحنة الأولى من دفعه بقوة نحو الوادي.

لحظتها: توقفت عقارب الساعة، وانتفضت أشجار الصنوبر في الكرمل واشتدت الأمواج على شاطئ حيفا، أما الجميلات وضفائرهن الساحرات فقد اصطففن خشوعاً في وادي النسناس.

لحظتها: دوت صيحات القسَّام المنبعثة عبر الوادي وقد انطلقت من مسجد الاستقلال.

نظرت سعاد في عيني حسام وهي تمسك بقميصه محتمية وهي تردد:

الجنة يا حسام، الجنة يا حسام.

أما حسام: فكان ينظر نحو السماء ويرى فاطمة وهي تمدُّ يدها له ولعروسه قائلة: أهلا بضيوف السماء، مرحباً بالعروسين الجميلين، ومن

حولها أمّه وحياة الصغيرة وآلاف الشهداء.

تدحرجت السيارة عبر الوادي السحيق، حتى وصلت أسفل الكرمل، حيث أطراف المدينة العميقة التي طالما أحبّها حسام.

عندها كان أبو أسيل يصرخ في البلدة كالمجنون:

لقد قتلوهما، لقد انتقموا من حسام، لقد نفّذوا وعيدهم.

وقد بدأ الناس بالتجمع حول أبي أسيل الذي ظل يصرخ وفي يده الهاتف الخلوي الذي سمع به الصرخة الأخيرة لسعاد وهي تردد الجنة يا حسام، الجنة يا حسام.

وتوجّه بعض الناس باتجاه حيفا لرؤية الشهيدين ومكان الاغتيال.

جاءت بيسان كالبرق نحو أبي أسيل وهي تصرخ:

هل فعلوها، هل فعلوها القتلة الجبناء؟!

فأمسكت بها إيناس وهي تبكي: لقد استشهدا يا حبيبتي، لقد ماتا شهيدين.

كانت البلدة جميعها تبكي العروسين، لكنَّ غضباً كبيراً بدأ يتشكل على وجوه الناس الذين سمعوا المحادثة التي سجلها أبو أسيل على هاتفه الخلوي، فبدؤوا بالتجمهر وانضم إليهم أبناء المدن والقرى من جميع الأراضي المحتلة عام ٤٨، حيث سمعوا المحادثة التي بدأت المحطات والإذاعات المحلية وإحدى القنوات الفضائية ببثها، وقد أصرّت الجماهير الغاضبة على تسلّم الشهيدين وعدم السماح بالذهاب بهما إلى مركز

التشريح الجنائي، وقد أذعنت الدولة العبرية لطلب الجماهير الحاشدة، وبعد ست ساعات من الحادث، وصلت قافلة من السيارات تحمل الشهيدين الذين كانا بوضع صعب نتيجة الاغتيال.

أعلن تلفزيون العدوِّ الرسمي أن الحادث سببه عرَضِي وليس له علاقة بالمخابرات الإسرائيلية كما يدَّعي العرب، وأنَّ سيّارة حسام هي التي تجاوزت قوانين السير.

شارك عشرات آلاف من الناس في تشييع الشهيدين اللذين لُفَّا بالعلم الفلسطيني وكانت درجة الغضب أمراً لا يمكن ضبطه بأي حال من الأحوال، حيث وقف الشيخ حسن خطيباً بالجماهير:

اليوم، لا نودّع حساماً وسعاد، بل نستقبلهما عبركم، ومن خلال غضبكم ونفيركم، فهذا ما أراده حسام، أن تقولوا لا للاحتلال، لا للصهاينة، نعم للمقاومة، نعم للدفاع عن تراب الأجداد الذي ينادينا من قيسارية حتى بئر السبع، نعم للموت في سبيل الله ومن أجل أرضنا ومقدساتها.

اليوم، يصرخ بكم حسام، هبوا للدفاع عن المسجد الأقصى، وكنيسة المهد والقيامة طهّروا أرضكم من الغزاة، لا تكتفوا بالكلام، حوّلوا شعاراتكم إلى الأفعال.

وبعد أن دُفن الشهيدان إلى جانب الشهيد أسيل، توجهت الجموع الغاضبة نحو قوات الاحتلال التي وقفت على الشارع الرئيسي وبدأت

المواجهات وكأنها حرب حقيقية حيث استشهد خمسة من المتظاهرين وأصيب العشرات.

وبعد انتهاء المواجهات ليلاً وانسحاب قوات الاحتلال حصل هجوم بالزجاجات الحارقة قرب مدرسة البلدة، مما أدى إلى احتراق سيارتين للجيش وإصابة من كان بداخلهما بحروق متفاوتة بعد أن اصطدمتا بجدار المدرسة!!

وبعد أسبوع من استشهاد حسام وسعاد، أعلنت الصحف العربية وحتى صحف العدو الصهيوني، أن مئة مولود ولدوا خلال أسبوع قد حملوا اسمي حسام وسعاد وأن أهل مدينة الطيبة تحدوا الاحتلال وأطلقوا اسم فاطمة الفلبينية على أهم شوارعهم.

ويستمر الخير والنور في أرض الخير والنور.